الآثار الكاملة

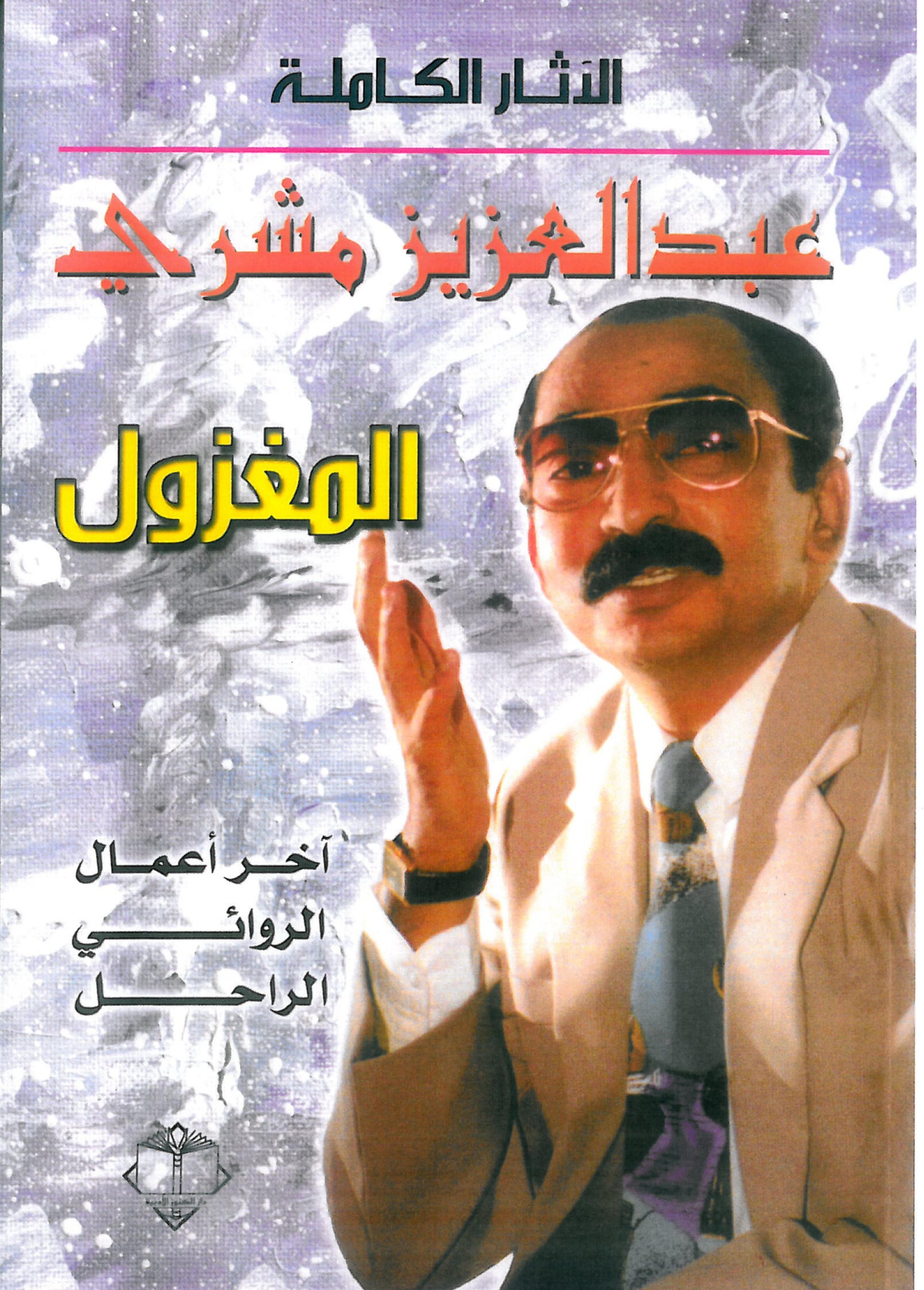
عبد العزيز مشري

الأعمال الروائية

(الجزء الثاني)

المغزول

المجلد الثالث


الآثار الكاملة
عبد العزيز مشري
المغزول
آخر أعمال
الروائي
الراحل

كتابة الألم... و ثقافة الأمل

(١): تلويحة الغياب

قبل أن يموت عبد العزيز مشري كتب وصية الغياب، وتدرب على الاقتراب من حافة الموت والفناء، فأخبرنا عما يشبه العدم القابع خلف كل النهايات التراجيدية، ولذا فرغم الغيبوبة الطويلة التي سكنها قبل وفاته، إلا أننا كنا ننتظر خروجه منها، لأنه عودنا على مفاجآت العودة بعد الرحيل، ولكنه هذه المرة كان جاداً في ذهابه المبكر... ولأننا تدربنا بشكل كامل، وعبر عمر طويل، على حضوره الواقعي والرمزي، فقد قررنا ألا نضعه في قبور النسيان.

كان آخر ما خطه قلم عبد العزيز في هذا العمل- وأظنه خاتمة ما دونه في حياته- فقرة بالغة الدلالة لتوديع الحياة، حيث كتب عن بطل النص «زاهر»: «لم يكن أحد قد منحه أدنى المسامع، وكان يصرخ، وعندما جفت بلاعمه وشحب صوته... جاءه ممرض النوبة الليلية، غاضباً، وهو يردد بإنجليزية أمريكية مضغوطة:

Don't use your voice... Be quite...Be quite

ثم حمله كحشرة بلا قدمين، ووضعه في السرير...»

هذا ما حدث له في غيبوبته الطويلة الأولى في أمريكا، ولعل ذلك ما شعر به أيضا، في غيبوبته النهائية في أحد مستشفيات مدينة «جدة».

وحين نبحث عن موقع للقراءة المقارنة بين المشهدين، يمكننا الذهاب إلى أن هذه الجملة السردية القصيرة، تتضمن معنيين دالين، ظاهرهما يشي بنتيجة انتهاء معركة «زاهر» مع المرض بانتصار الأخير عليه، حين بلغ في صراعه الطويل معه فقد القدمين (والواقع أنه أصبح بلا رجلين كاملتين)، ومن ثم لم يعد بإمكان الفارس أن يواصل معركته مع غريمه، مما سهّل إمكانية حمله كحشرة بلا قدمين إلى سرير النهاية.

أما المعنى الأكثر عمقاً، فإنه يستبطن ما عبرت عنه الرواية من تفاصيل مقاومة المرض المستبد الدائم، مترافقة مع لغة احتجاج عالية ضد سطوة السياسة الأمريكية في المنطقة العربية، وكأنما كانت تلك السطوة صنواً لعنف المرض وقسوته، ومن هنا جاءت النهاية التراجيدية... نهاية بتر الساق حتى منتصف الفخذ على يد الطبيب الأمريكي... مصحوبة بأدوات القمع السلمي- لسلسلة احتجاجات مثقف عربي يهذي- علي يدي ممرض أمريكي، يأمره بصوت غاضب، بأن يصمت!

** ** **

و «المغزول»،عنوان الرواية، كلمة تستخدم بلهجة منطقة الباحة -الواقعة في الجزء الأعلى لجنوب المملكة-،وتعني المجنون، وقد استخدمها الكاتب لبناء عمل سردي، كان قد بدأ في كتابته قبل رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال خاتمة عمليات البتر الجسدي التي اضطر لخوضها، و أكملها بعد المجيء إلى الوطن، وكأنما أراد بهذا العمل أن يكون خلاصة تجربة حياة طويلة تعايش فيها مع أمراضه، بل وقهرها جميعاً، بصلابة الإرادة

وحين نبحث عن موقع للقراءة المقارنة بين المشهدين، يمكننا الذهاب إلى أن هذه الجملة السردية القصيرة، تتضمن معنيين دالين، ظاهرهما يشي بنتيجة انتهاء معركة «زاهر» مع المرض بانتصار الأخير عليه، حين بلغ في صراعه الطويل معه فقد القدمين (والواقع أنه أصبح بلا رجلين كاملتين)، ومن ثم لم يعد بإمكان الفارس أن يواصل معركته مع غريمه، مما سهّل إمكانية حمله كحشرة بلا قدمين إلى سرير النهاية.

أما المعنى الأكثر عمقاً، فإنه يستبطن ما عبرت عنه الرواية من تفاصيل مقاومة المرض المستبد الدائم، مترافقة مع لغة احتجاج عالية ضد سطوة السياسة الأمريكية في المنطقة العربية، وكأنما كانت تلك السطوة صنواً لعنف المرض وقسوته، ومن هنا جاءت النهاية التراجيدية... نهاية بتر الساق حتى منتصف الفخذ على يد الطبيب الأمريكي... مصحوبة بأدوات القمع السلمي- لسلسلة احتجاجات مثقف عربي يهذي- علي يدي ممرض أمريكي، يأمره بصوت غاضب، بأن يصمت!

** ** **

و «المغزول»،عنوان الرواية، كلمة تستخدم بلهجة منطقة الباحة -الواقعة في الجزء الأعلى لجنوب المملكة-،وتعني المجنون، وقد استخدمها الكاتب لبناء عمل سردي، كان قد بدأ في كتابته قبل رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال خاتمة عمليات البتر الجسدي التي اضطر لخوضها، و أكملها بعد المجيء إلى الوطن، وكأنما أراد بهذا العمل أن يكون خلاصة تجربة حياة طويلة تعايش فيها مع أمراضه، بل وقهرها جميعاً، بصلابة الإرادة

وعمق البصيرة، وشجاعة المواجهة.

كما أراد من جهة ثانية تخليق مناخ سردي يمنح بطل الرواية «زاهر المعلول» قبولاً اجتماعيا ورقابيا، لينفذ من خلاله إلى كشف بعض مكونات البنى العميقة للألم، التي تحفل بها حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية، فأفسح المجال واسعاً أمام هذيان «المغزول» أو حكمته، أو صدقه، -لأن المجنون قد رفع عنه القلم- للتعبير عن كل ما أراد مقاربته.

وحين كان يجالد «الغرغرينا» التي فتكت بقدمه اليسرى، وجد أن اندماجه في كتابة عمل سردي هو أقوى أسلحته المضادة للتغلب على قسوة الألم، وقد شجعه الاصدقاء على الاستمرار في كتابتها رغم عدم قدرته على قراءة ما يكتب، وقد بذلت «فوزية العيوني» جهداً كبيراً في تشجيعه على استمرارية الكتابة، حيث كان يكتب مسوداته ثم يرسلها لها بالفاكس من جدة إلى الظهران، فتقوم بقراءة النص عليه هاتفياً، ويتم عبر المهاتفة إجراء التصحيحات أو التعديلات التي يراها عبدالعزيز مناسبة.

وبعد عودته من سفر العلاج، كان قد تخلّص من آلام الرجل التي بُترت، فاستأنف العمل على إكمال روايته، بروح جذلة أمدته بالقوة على إنجاز «المغزول» بمساعدة أخيه الوفي «أحمد مشري».

** ** **

كان مثل هذا العمل السردي الطويل بحاجة إلى جهد المراجعة لضبط إيقاعه القائم على تداخل الأزمنة، والحالات، وإلى صبر على التدقيق وربط الجمل، وضبط بعض النبرات العالية التي قد لا تتسق مع السياق التحليلي والتأملي المتماسك في جل هذا النص، ولكن

يد القدر، لم تمهل الراحل الكبير لمراجعة عمله والتدقيق فيه كما عهدناه، فقام بهذا الجهد الشاق شقيقه أحمد، وتوّجه بصف النص على الكمبيوتر.

وحين قادتني الصدف لأن أكون آخر الأصدقاء الذين يستمتعون معه بقضاء ليلته الأخيرة، لم أكن قد قرأت النص بعد، ووجدت أحمد مشري يعمل على تصحيحه و طباعته.

كان جالساً مع ممرضته، وأخيه، ووالدتهما، في حوش بيته أمام حوض الريحان وشجيرات «الكاذي» الصغيرة، وقد ابتهج كثيراً برؤيتي...سهرنا حتى منتصف الليل، وتحدثنا حول طباعة أعماله الكاملة، والتي كنا قد بدأناها بإعادة صف مجموعاته القصصية، وتوقفنا عند بعض الأجزاء الصغيرة التي قد لا توافق عليها الرقابة المحلية، مثل الفصل المعنون «أحمد يتعلم أشياء جديدة»الوارد في رواية الوسمية، وبعض ما تضمنته رواية «في عشق حتى»، وكذلك ما سيرد في «المغزول»، بحسب ما فهمته من أخيه.

وكنت و أحمد نميل إلى تعديل تلك الفقرات القصيرة، أو إعادة صياغتها، ولكن عبد العزيز، كعادته، لم يرضِ بالتنازل عن حق العمل الفني في البوح عن المسكوت عنه، لأن ذلك في نظره، يعدُ مناط خصوصية العمل، وسرّ تفرده، وقال لنا: ألا تتذكرون ما تحفل به الثقافة الشعبية في الجنوب من حكايات وأمثال يستخدمها الناس في مخاطباتهم اليومية رغم ما تحفل به من مضامين تتجاوز ما أوردته في رواياتي سواء في الجوانب الجنسية او الثقافية أو غيرها؟ وأردف متسائلاً بغضب: إذا حذفنا فصل «أحمد يتعلم» من رواية «الوسمية»، فماذا يتبقى منها؟

كـان سـؤالاً حاسماً حمل إجابته معه، ووجدنا الحل في نشر المجموعات القصصية، والجزء الأول من المجوعات الروائية، المجازة محليا، داخل المملكة، أما التي لم تقدم للرقابة المحلية أصلاً، ومنها المغزول، وما قد يضيفه إليها لاحقاً، فبإمكاننا طباعتها في بيروت، وتوزيعها في معارض الكتاب العربية.

بدا عليه التعب وتحامل على احتمال وطأته، و لم يدخن المعسّل معي كما اعتدنا، و حدثني عن بداية التهاب في المسالك البولية، يخشى معه انتقال الفيروس إلى الكلية،...وعلى العشاء الذي حرص على أن يكون تعبيراً عن احتفاء خاص بي، صنعت والدته لنا «عصيدة»، فأكل معنا بشكل جيد، وشجّع ممرضته المغربية «فائزة» على تذوق هذه الأكلة، وحثها على تعلم صنع «العصيدة» للأصدقاء الجنوبيين -أمثالي - في الزيارات القادمة.

وعقب العشاء تناقشنا حول أمور تتعلق بطباعة أعماله، ومنها حجم المجلد، وصورة الغلاف، ودار النشر، إلا أننا اختلفنا حول حجم الكتاب، وحين اخترت صورته المعلقة على الحائط لتكون على الأغلفة، قال: ليكن حجم الصورة هو حجم الكتاب، (ويا لدقة عبد العزيز، فقد وجدت فيما بعد، أن مقاس الصورة متناسب تماماً مع الحجم الذي أصرّ عليه!).

في الواحدة نمت لكي أصحو في الخامسة للحاق بالطائرة، وحين أفقت، وجدت ممرضته «فائزة» تبكي، وأشارت إلى أن عبد العزيز مرض البارحة، وحمله أخوه أحمد إلى المستشفى، ولم يعودا حتى الآن.

هاتفت أحمد عصراً للاستفسار عن حالة عبد العزيز، فأبلغني

أنه في غيبوبة، ولكن أحمد كخبير في حالات مرض أخيه، طمأنني بألا أقلق عليه، وكان يردد دائماً، كلما اتصلت به: لا تخف...إنني واثق أنه سيخرج من هذه الغيبوبة، وأنه لن يموت، لأنه كالقطط... بسبعة أرواح، ويكمل مؤكداً: إنني أعرف قدراته جيداً، فقد عايشت حالات غيبوباته من الدمام إلى الرياض، إلى أمريكا.

رغبت بعد أسبوع أن أزوره في المستشفى، ولكن أحمد أكدّ لي أن الأطباء يمنعون الزيارة عنه حرصاً على راحته النفسية، لأن زيارة الأصدقاء تشعره بعجزه، مما يؤثر على استقرار حالته، فقبلت كلامه على مضض، مثلما قبل كل المحبين لعبد العزيز، وتركناه في رعاية الله.

وفي الساعة السادسة من مساء يوم الأحد / ٥ / ٢٠٠٠م (بعد أربعين يوما من بدء الغيبوبة)..... هاتفني صديقه الوفي، القاص والكاتب المعروف، سعد الدوسري من المستشفى، وهو يغالب حشرجة البكاء، وقال لي: لم أجد أحداً أقرب منك لعبد العزيز لكي يشاركني حزن هذه اللحظة... وأضاف: بعد قليل سينزع الأطباء عنه أجهزة التنفس الاصطناعية، وسيمضي إلى رحمة ربه.

كانت زوجتي قريبة مني، فصرخت باكية، أما أنا فقد تحجر الدمع في عيني، وبقيت متماسكا حتى ونحن نواريه الثرى في جدة، ولكن غصة الفقد والحنين ظلت معلقة في صدري... ورأيت أن أفضل عمل أقوم به لمغالبة الحزن، هو متابعة تصحيح بروفات أعماله الكاملة.

انهمكت في تصحيح مجموعاته القصصية، وفي كتابة مقدمة لها، وكنت أجد العزاء في قراءة تلك الأعمال، وأحسه بجانبي يحدثني،

ويمطرني بوافر سخرية الحكايات، ولم أشعر بحقيقة فقده إلا بعد أن أكملت تلك البروفات... وقمت بدفعها إلى المطابع... وحينها... وحينها فقط... أحسست أنني فقدت عبد العزيز إلى الأبد، فبكيت عليه كما لم أبك في حياتي.

** ** **

أدركت، بعد قراءة رواية «المغزول» أننا أخطأنا في عدم الأخذ بالرأي القائل بضرورة دفنه في مقبرة القرية، ذلك أن هذه الرواية التي سجلت حالة غيبوبته في امريكا وإحساسه بالموت، قد تضمنت ما يشبه الوصية، حيث ذكر فيها «أسألوا أمه أن تقود سيارتها وتحمل جثمانه إلى مقبرة القرية».

لقد كان من اللائق بعاشق القرى، أن يتوسد في موته رائحة المكان الذي أحب، والشجر الذي عشق، وأن يكون له قبر معروف يمكن لمحبيه أن يأتوا إليه لقراءة الفاتحة على روحه، لا أن يدفن في مقبرة واسعة لا يعرف لقبره منها موضعا.

وها نحن الآن، نعاود جمع الحروف من جديد، بعد أن تأخرنا في إخراج هذه الرواية من مخزنها، وذلك لأننا كنا نود إصدارها ضمن الجزء الثاني من الأعمال الروائية، غير أن الظروف القاسية التي مررت بها قد أعاقت صدور الجزء الثاني لمدة تقرب من العامين، ولذا رأينا إصدارها الآن بشكل منفرد.

والآن، لا يقلقنا أكثر من حرصنا على إخراج هذا العمل بأقل قدر من الأخطاء، لأننا قد خبرنا حرص الكاتب على دقة متابعته لنصوصه، وغضبه لأتفه الهفوات، ونسأله أن يسامحنا على ما قد يصيب النص من تصويبات أو اجتهادات بسيطة قد لا يوافق - عبد

العزيز- عليها لو كان بيننا.

وقد بذل شقيقه احمد مشري كل جهده، للوفاء للنص الأصلي، كما قمت أنا وزوجتي فوزية بمقابلة النص المطبوع بأصله في المخطوطة، للتأكد من بعض الكلمات، أو الفواصل، أو الأجزاء الواردة بالبنط الأسود، وقد بالغنا في الحرص على الوفاء للنص الأصلي،ولكن صديقه الشاعر محمد الدميني الذي صحح البروفة ما قبل النهائية، كان أشجع منا، أو أكثر تحرراً من قيد تلك المعرفة اللصيقة بحرص عبد العزيز على صياغاته، واستخدامه لبعض الكلمات في غير موضعها عن قصد، فأجرى محمد قلمه بالكثير من التصويبات، وأبدى بعض الملاحظات البنائية والجمالية، التي أخذنا بالكثير منها، إلا ما أدركنا - بحكم الخبرة- أن المرحوم لا يمكن أن يقبل به، سواء من الناحية الفنية أو الناحية الرقابية.

(٢): قراءة عابرة

شكّل الكاتب في هذا العمل بناءً فنياً مغايراً لما ألفناه في سردياته السابقة، حيث خرج من نسق «خطية» الحدث وتلازماته الزمنية التعاقبية النامية، واستبدله بنسق تداخل الأزمنة والأحداث، وهذا عمل شاق على كاتب لا يستطيع - لضعف نظره - قراءة ما يكتب بيسر وسهولة. وكان هاجسه منصبّاً على البحث الشخصي عن إمكانية تطوير شكل خطابه الروائي، تعبيراً ودلالة، وان يقارب بصنيعه هذا مناطق شائكة، كان قد حرص على تجنبها، بعد عمله الروائي الأول«الوسمية».

و قد استطاع الكاتب أن يحول تجربة حياتية واقعية إلى عمل فني ينطوي على كثير من الغرائبية تفوق في تفاصيلها مهارات التخييل

الفني والفنتازيا، فلم يكن بحاجة لتركيب حياة متخيلة توهمنا بحياة حقيقية، بل أن كل ما فعله هو استعادة أجزاء متشابكة ومتعارضة في تجربته هو مع المرض وسجون المستشفيات، لينجز، هذا العمل الشديد الخصوصية والشفافية والصدق.

إن ما عايشه الكاتب ليس مهما بحد ذاته ولكن الأهم هو كيفية التعاطي مع تلك التجربة الخاصة، والعصية على التكرار، حتى بدا الواقع أكثر سريالية من جهد التخييل والابتكار؟

لقد أفاد عبد العزيز من ممكناته الثقافية، ورؤيته النقدية، وحساسيته الخاصة للغة، واستخدام لعبة الزمن الدائري، واستنفار ما ينطوي عليه من مقدرة على استخدام فن السخرية، من أجل صياغة نص يغلب عليه طابع التأمل، والمكاشفة، وتسمية بعض الحقائق - المستورة بحجاب هش- بأسمائها، و ليسهم مع غيره في طرح الأسئلة، ودفع المناخ الاجتماعي والثقافي في المملكة إلى حالة نسبية أرقى من ذي قبل، للقبول بالحوار،والمكاشفة، ونبذ العنف، و تقبل نقد ثقافة التشدد والإقصاء والتكفير.

ولو كان القدَر قد أسعفه بحياة أطول لتلمسٍ بيديه مصداقية ما ذهب إليه، ولتنفس معنا هواء أكثر نقاء وقبولاً للمغايرة، وأقل تسمماً من ذلك الفضاء الخانق الذي احتملناه منذ نهاية الثمانينيات وحتى أحداث تفجيرات «المحيا» وغيرها بالرياض.

** ** **

تبدأ رواية «المغزول» بهذه الجملة:(«أين رجلي...أعيدو لي رجلي»... هكذا كان «زاهر المعلول» وقت إذ مد يده ليمسك موضع تنمّل شديد في إصبع قدمه اليمنى»).

وتنتهي الرواية بعبارة (وحمله كحشرة بلا قدمين، ووضعه في السرير).

فالبدء بتر للرجل اليمنى (وتعني القدم والساق والفخذ)، والنهاية بتر للرجل اليسرى حتى أصبح كحشرة بلا رجلين، وتم حمله إلى السرير. وما بين حالتي البتر تتعالق أحداث تضم بدء المرض في مرحلة الطفولة، وتلتف السيرة بطريقة دائرية كحبال مختلطة، لا بدء لها ولا نهاية، لكنها سيرة حياة طويلة وغنية، أصيب بطلها بمرض السكري في بيئة لا تعرف للأمراض علاجاً إلا قراءة الفقيه أو رقية المداوي، ولا تتوقع أن يصاب شاب ناحل في بيئة فقيرة «بداء الملوك»... وينتج عن ذلك المرض الأصل، سلسلة من الأمراض تشمل النظر، والفشل الكلوي، وغسيل الدم «الديلزة»، وفقدان التوازن، وضغط الدم، ومعاقرة أمراض مزمنة لا برء منها، ولذا يغدو المرض والمريض توأمان سياميان لا انفصال لأحدهما عن الآخ، ويغدو المستشفى سجناً مؤبداً، بدون تهمة محددة، بل يمكن أن يكون السجن العادي أكثر رحمة بنزيله من مريض المستشفيات، لأن السجين يقضي مدة عقوبته مفعماً بأمل الخروج منه والبدء في حياة جديدة.

فكيف تعاطى الكاتب مع توأميه:المرض وسجن المستشفيات في حياته وإبداعه؟

استطاع الراوي في هذا العمل التغلب على عنف المرض، من خلال التعامل العقلاني معه، فيقول:«المرض المزمن يخاف من الابتسامة، وحب الناس وحب الحياة... يخاف من الذين يتعاملون معه بعلمية، ويكافحونه بعدم التصديق للشائعات، والدعايات

الرائجة».

إن الكاتب يحيل المرض إلى مصدر للمعرفة، ومختبر لفضح مركبات الجهل والخرافة والدجل، ويخلق من مقاومته معادلا للسعي في استرداد الكرامة والحرية، حيث يقول: «ليست كل العذابات المرضية أكبر من انتزاع كرامة الإنسان، وليست الأوجاع الليلة بأقسى من مصادرة حرية المرء». ويذهب إلى أن يرى في المرض تحدياً إيجابياً لشحذ القوى الكامنة في الإنسان لمعاندة كل أشكال البطش والهوان، فيقول: استذكر «زاهر» شيئا جوهرياً...يمد إليه يده كلما وقع في أمر صحي جديد. إن الإنسان لا يقهره شئ، وأنه يكون قد تهيأ لمرحلة تبرز فيها قواه التي لم يكن يدرك فجأة تحمّلها، ثم إنه يراها في قبضة تحكّمه وإرادته، وأنها سهلة أمام تغلبه عليها، حتى ولو كانت أصعب من الخيال».

والكاتب في عمله مثلما في حياته، امتلك القدرة على النظر إلى مرضه كمساحة للتأمل، ليخلص إلى القول بأن: المرض في حياة الإنسان ليس سوى فرصة لتهذيب العناء، واكتساب الخبرة من وطأة عناء التجارب« بل إن عبدالعزيز قد أحال المرض إلى سياج يحمي الذات من «مخالطة من لا طاقة له على احتماله من الناس»، لكي يحقق لذاته نزوعها الدائم نحو التأمل والانفراد بالنفس، ويهبها الزمن الكافي للقراءة والكتابة والإبداع بالقلم وريشة الرسم، وريشة العزف على آلة العود!

لم يشتك عبدالعزيز من المرض ،ولم يضعف أمام جبروته، بل كان يفلسفه ويطبق في واقعه فلسفة القدرة على احتماله، مؤكداً دائماً على أن المرض حالة يومية اعتيادية، كالنوم، والأكل والاستمتاع.

ولقد كان أقسى ما يزعجه، ما يراه من نظرات شفقة باردة من بعض المحيطين به، ولذا كان المرض عنده مصهراً لتطهير الروح، وملاذاً للانفراد بالنفس وحب الحياة بكل تفاصيلها، حيث يوجه خطابه لكل مريض: «لا تخف من المـوت... ليس لأنك لن تموت، بل لأنك لا تزال تدرك معنى الحياة».

أكثر من غيره، قاسى مؤلف «المغزول» نوازل المرض المزمن، حتى بلغ في رحلته العلاجية في أمريكا حافة الموت او خيّل إليه أنه قد تجاوزها، ووصل حالة العدم ولم يجد شيئاً، ولكنه كان يمتلك رغبة كامنة في الحياة ويوما موعودا لم يحن بعد، فعاد من موته إلينا من احد مستشفيات الولايات المتحدة، ليدوّن لنا واحدة من أهم الشهادات الإنسانية التي يمر بها مريض دخل غيبوبته، وشارف على الموت، ثم تجاوزها ثانية إلى الحياة.

وحينمانقف أمام هذه الإرادة الفولاذية والرؤية المتماسكة للتعايش مع عدو ما من ملازمته بد، فكيف نفسر ضعفه وعدم قدرته على احتمال «التنويم» في أي مستشفى، ولو لليلة واحدة؟

لقد حفل هذا العمل، مثلما حفلت حياة كاتبه ،بشعور عدائي مضخّم إزاء «التنويم «في المستشفيات، جعله لا ينظر إليه كضرورة يجب التعاطي معهابعقلانية ،بل إلى «فوبيا»نفور وكره للمستشفيات، لا يقل عن رعب الإنسان من احتمال دخوله للسجن، حتى أن هذا الخوف من المستشفى قد حمل كاتبه لتصويره سجناً حقيقياً، فنجده يصف الحياة في داخل عنابر المشافي ومعاناة النزيل، وثقل الزمن، وقسوة الممرضين والممرضات، وبعض الأطباء، بما يوازي ما يعانيه المسجون في زنزانته.

إن كاتبنا يكره القيد ويعشق الحرية، و يفزع من احتجازه رهيناً للعلاج في عنابر المشافي، وربما يعود ذلك إلى حبه للوحدة وعشقه لمكانه الخاص وغرفته الخاصة التي تشكل له عالما بديلا لكل ما عداه، حيث يجد فيها ملاذا من قسوة الآخر، وباباً يفتحه على ثقافة العالم، وموقعا أليفا للقراءة والإبداع، ولعلنا - القريبين منه - نعرف عنه حبه للعزلة، وزهده في الرحلات، واعتذاره عن حضور الكثير من المناسبات الخاصة، تعلقاً بعالمه الإبداعي الخالص ووفاءً له.

وهذا الإحساس العارم بالرغبة في امتلاك الحرية من خلال العزلة - ولعلها سمة العديد من المهمومين بالكتابة بشكل عام -، قاد الكاتب للهرب المستمر من المستشفيات، حتى أنه كان يهرب - مع مرافقه - من مستشفى الرياض إلى بيته في الدمام ليلاً، ويعودان إليه قبيل الفجر، بعد أن يقطعا مسافة ثمانمائة كيلومتر ذهاباً وإياباً، من أجل التمتع بسويعات خاصة في جنة غرفته الصغيرة. وذلك ما جعل من كتابه هذا مديحاً في مقاومة المرض، وهجاء لا حدود له للمستشفيات، و هو ما يفتح النص لقراءته كمحتوى أدبي، لا يختص بالمرض وحده بل وبالسجون أيضاً.

وإذا كان التشوف للحرية سبباً كافيا لتبرير هجاء المستشفيات، فإن هناك سبباً آخر لا يقل أهمية في التعرف على دوافع ذلك الكره، ومرده إلى ما ينطوي الكاتب عليه من حس إنساني بالغ الرهافة والشفافية، يدفعه لتجاوز حالته المرضية إلى التعاطف مع حالات المرضى الآخرين، والإنصات بحب وألم لأنينهم الذي يتسلل إلى أعماق الروح. وكان ذلك مدعاة لمضاعفة ألمه حين لا يستطيع شحنهم بثقافة المواجهة التي تدرب عليها، ولا يتمكن من مساعدتهم في غياب عناية المرضين والأطباء، ونقص الرعاية والعلاج. ومن

هنا تجئ دلالة استدعاء الكاتب لشخصية «السليك ابن السلكة»، أحد زعماء فقراء الصعاليك، الذين كانوا يتحسسون الفوارق الطبقية وغياب العدالة الاجتماعية، فيذهبون إلى تطبيقها بأنفسهم، لينهبوا الفائض من أموال الموسرين ليردوه إلى فقراء البلاد، حتى وإن لم يجدوا إلا «جملاً أجرباً» تركه صاحبه بعيداً عن خيمته.

ولم يكتف الكاتب باصطحاب تجربة «سليك» وحدها كتعبير عن ذلك المعنى التاريخي المبكر للمفهوم الإيجابي للصعلكة، والكامن في ضرورة قيام الفرد بمسئولياته لتحقيق قيم العدالة، وإنما حمل معه هموم الفقراء والمحتاجين في الوطن، وعذابات المشردين في المنافي أو تحت وطأة الاحتلال،وعبّر عنهم في مرافعاته الساخرة ضد قوى التعسف والاحتلال، حتى بلغت نبرته علو ذروتها في نهاية الرواية، حين لم يترك شيئا دون نقد أو احتجاج.

وبالرغم من تأكيده في مواقع من النص على لسان «الراوي»: «لست شعارياً ولا مناهضاً عاطفياً وراء القيادات المعادية في عالم التنمية الثالث، ولست عدواً لأحد، ولا مباركاً لأحد، غير أن عظامك قد تكونت بفتافيت ذراتها على نبذ كل ما هو فتاك بالإنسانية في الدنيا»، إلا ان النبرة العالية في نهاية الرواية قد تحولت إلى انفلاتة عبارات وجمل احتجاجية صاخبة، أخلّت بالإيقاع المتدرج في نبرة الخطاب، و خرجت من لغة الحكمة و التعقل في توصيف أحوال «زاهر»ورؤاه، إلى هذيان محموم / «مغزول»، لم يعد يفد معه غير صوت مضاد عالٍ يقول له بغضب: أصمت.. أصمت

لم تمد الحياة عبد العزيز ليكمل ما بعد الهذيان، لكي يعقلن الاندفاعية المكبوتة، أو لكي يوسع من آفاق تحليلها والتأمل في

مقاربتها، أو مقارعتها، ولعل محاولتنا لتبريرها يجد منطقه حين ننظر إليها على أنها الصرخة الأخيرة التي يطلق فيها الموجوع أو المظلوم صوته، قبل أن يقاد إلى حبل المشنقة أو حد السيف، أو الاقتراب من حافة الموت.

(٣): خاتمة

هذا كتاب في هجاء التألم من الألم، ومديح للقوى الخفية في الإنسان، واستنهاضها لتعينه على مواجهة قدره، فردياً كان أو جماعياً، ثقافياً كان أو سياسياً، ولعل أهم ما ينطوي عليه العمل، هو ما يوحي بالمشابهة بين المرض الفردي الصحي المزمن الذي يعانيه «المغزول»، وبين أمراض الفقر والجوع والقهر والتخلف التي ينوء تحت أثقالها، عالمنا العربي الكبير.

ولعل قدرة «زاهر» وإرادته على تحويل الضعف إلى قوة، هي بنية المعادل الرمزي المتخفية في قاع النص، والتي تنبهنا إلى أهمية الاعتداد بالذات، والثقة في النفس، ومقاومة الامراض العديدة التي تتغلغل في أبداننا، و أفكارنا، وأوطاننا.

إنه كتاب، وحكمة معاً...

كتاب في كتابة الألم، يحتاجه المرضى ليتعلموا كيفية مواجهة المرض والتغلّب عليه، وما أحرانا بتوفيره لنزلاء المستشفيات والسجون معاً، ليعيدوا اكتشاف تلك القوى الكامنة في كل إنسان، والقادرة على الاحتمال، والنظر بعين باسمة إلى حياة أكثر عدالة، وحرية، وعافية و بهاء، ولذا فقد عمل «متطوعاً» كمرشد نفسي وصحي للمرضى في مستشفى الملك «فهد» بجده.

وهو حكمة أيضاً، في بعده الرمزي المحرض على زرع ثقافة التفاؤل والأمل ،ليس في الأجساد المتعبة و القلوب الكليلة وحسب، وإنما في الأوطان المنهكة، والشعوب المقهورة، لتكتشف مكامن قوى المقاومة فيها، و مقدرتها على حب الحياة، وصنعها أيضاً!

الظهران ١/١٢/٢٠٠٥

علي الدميني

من أسرة

أصدقاء الإبداع
أصدقاء عبد العزيز مشري

الفصل الأول

..(أين رجلي.. أعيدوا لي رجلي)؛

هكذا كان يردد «زاهر المعلول» وقت إذ مدّ يده ليحك موضع تنمّل شديد في إصبع قدمه اليمين.

انحنى كسبّابة معقوفة نحو الأمام؛ ولم يجد لقدمه أثراً، علم على بعض من الصحوة وبعض من خدر في الوعي؛ أنه الآن بلا قدم، وأن ساعات فائتات لا يدري عددهن.. قد مررن على انتهاء العملية الجراحية التي بتر فيها الأطباء رجله، غير أن الممرضة التي حضرت مصحوبة بموظفة الإشراف، وبرجل غليظ الهيئة.. يلبسون الأبيض جميعاً..قد أخبرته بلغة إنجليزية سريعة؛ أن عليه ألا يستخدم الضاغط الأحمر المعلق فوق رأسه على الجدار، وقالت موظفة الإشراف العربية محذرة.. أنه قد أحدث بهذا الفعل شيئاً من الطوارئ، فالوقت الآن يناهض الثالثة صباحاً... لقد دار على هدأته بعد العملية ما يكاد أن يقارب تطابق عقربي ميناء الساعة؛ ليكمل بعدها يوماً.

كان آخر ما تبقى بحافظة ذهنه من كلام، ولملمت عيناه المضببتان لباسها الأبيض الطويل.. بينما كانت الممرضة قد دفعت بكامل المخدر في وريد يده، ثم.. خمد كغصن اجتز فبدا عليه الضمور.

لقد أعادوه بحقنة سكنته حدّ التخدير إلى النوم، وما لبث خلف الضمور أن تخشّب ظهره فقرةً فقرة، وتيبست مفاصله فكان محنطاً سوى أن قلبه يدق برتابة ساعة قديمة كتلك التي خلّفها السابقون علما

على الجدران منذ وعى الأطفال دقاتها البندولية المكررة أبداً.

لم يكن «زاهر» قد وعي بعد من إغماءته البنجية.. لكنه صرخ وقتها.. صراخاً معباً بالخوف والوحدة والمفاجأة المباغتة، وكأنه لم يكن بالأمس قد وّقع بالموافقة على بتر رجله في ورقة محقونة بالبيانات والفراغات... لم يكن ليعرف محتوياتها، لكنه خربش توقيعه على عجل، وليفعل المؤتمنون بمصائر المرضى ما يشاءون.. اللهم فليهدأ هذا الألم الذي علا فانخفض، وتوسط فارتفع فوق بيان خطوط المقدرة البشرية على قدمه منذ تسعة أشهر دون انقطاع.

الآن في هذا الهزيع المتأخر من الليل إلا قليلا ؛ يصحو صحوة الغائب في ثمالة غيبوبة، قُدمت له بالمجان وتحت عينيه الموافقة بكامل الاختيار، فتمتد أصابع يده دون تلعثم إلى قدمه لتحك إصبعها الكبير و.. لا يجدها في مكانها الذي لا يخطئه ولو كان كفيف المشاعر منذ أربعين عاماً مضت: (أين رجلي.. أعيدوا لي رجلي).

الطبيب قال بعد تكرار الحالة ؛وفي لاحق وقت يقظ.. إن عادة الاحتياج إلى حك مواضع الأصابع في القدم ؛ على موازاة من رفيقتها اليسرى ؛ سيزول بتدفق الزمن، وإن هذه التلقائية مصدرها جهاز العصب.. فالله الخالق المحيّر، لم يخلق في الآدميين حجم شعرة إلا جعل لها وظيفة واحتياجاً، وراح يفنّد بدلائل ومصطلحات أجنبية أن الخط العصبي المكلف بتوصيل الرسائل الحسيّة.. لا يزال يعمل وسيبقى بالرغم من قطعه في منطقة ما تحت الركبة، وأضاف: «فسبحان الخالق».

** ** **

الطقس في الخارج بارداً وجافاً كعادة العاصمة عند دخول

ديسمبر، كذلك كانت ضلوع المريض ومفاصل عظامه، أما شفتاه فقد لبستا قشرة يابسة من الجفاف، وتناقص اللعاب في فمه، وكانت مخارج الأنفاس في الانف مغلقة بقطع الدم الجامد..مما زاد في جفاف الحلق والفم، بسبب ذلك القيد الانبوبي الممتد من قاعدة عمود الظهر إلى الرقبة والموصول بجهاز موقوت يقف على عمود على يسار السرير.

كان مجمع السوائل الفائضة بمثانة البدن.. يكاد ينفطر، غير أن السيطرة الدوائية السارحة عبر الأنبوب إلى أسفل الظهر؛ قد عطلت إمكانية التبول الطبيعي.

شعر بضيق منهك، وكانت حواسه تتنبه على مهل، حسب أنه قد نام لمدة تزيد عن شهر، تساءل في ذهول لا جواب عليه سوى الاستسلام: ماذا سيصنع ببقية الوقت الآتي داخل حضن هذا السرير؟

لم ينشغل بالبحث عن حلول الآتيات، فقد تعلم أن الأشياء تعرف كيف تصنع تلاؤماتها حين تحاصر أنفاسه، وعندما دخلت الممرضة العجوز؛ كان وجهها يبدو كقطعة من الخشب.. قالت إنها تحتاج إلى مقدار من الدم، وعمدت دون رد منه إلى البحث عن وريد باليدين تغرز فيه سن الإبرة، لكنها لم تجد، فقد كانت إحداهما ضيقة المجاري، والأخرى خاملة المواقع الصالحة للسحب بسبب ربط قناة بين الشرايين والوريد منذ وقت بعيد، حيث خضع «زاهر» في عشر من السنين لعمليات تنقية الدم شبه اليومية.

شرايين اليد اليمنى تبدو ممتلئة وصالحة لاستقبال الطعنات.. لكنها خاملة من موقعين.

عجب:

(علقوا على باب الغرفة تحذيراً من التعامل مع عروق يد المريض اليمني، منذ دخوله.. فهل قرأتها هذه السيدة المكتظة بخبرة التمريض).

لم يتكلم، كان يعلم متى سيكون موعد طوي جسده إلى اللاحياة لو فعلت، لكنه بقي صامتاً وجافاً، وود لو أنه بلّغها باليباس الذي يكاد يغلق فمه، وعند حاجته إلى أي سائل يشربه، فلم تجر عوائده القروية البدوية على عرض الحاجة أمام من لايرى فيه التقبل... قاوم يدها مشيراً بتلقائية تخطت العادات ؛ إلى ذراعه.. فهمت بعينيها النصف ضامرتين، على عدم رضى ولزمت الباب، ثم عادت بعد مسافة تعب المنتظر ومعها زميلة عريضة البدن والصوت لا يخطيء من يتأمل صلابتها أنها من نسل عميد الوزراء البريطاني السابق «تشرشل».. لم تأبه بالمريض الساكن من الجفاف، خطفت عدتها ونالت من غير الذراع الممنوعة ما تحتاجه من دم ثم كشفت الغطاء عن الجرح الذي خلّفه البتر في الرّجل، وتبادلت مع زميلاتها حديثاً لم يفهم منه سوى أن الأمور في عمومها طيّبه.

قال «زاهر» على عجل، وكأنما يخرج من فمه كلاماً مجففاً:

إنه يحس باليباس وصعوبة التنفس، كان يتمنى لو يقدر على رفع صوته ليبلغهما بوضوح، لكنهما قد فهمتا على ما يبدو.

بعد وقت جاءت حفيدة «تشرشل» وفي يدها كأس من عصير البرتقال، وفي فمها كلام كثير تفانت في إبلاغ أهمه حول الدواء الجديد الذي يشبه الماء، وقد علقته بقربته البلاستيكية.. (يستطيع إن زاد عليه الألم ؛ ضغط رأس الحبل الرفيع.. يئز ويندفع جرعة

فجرعة). لقد كان سائل «المورفين» حيث لم يسبق ل«زاهر» أن تعامل معه من قبل.. حاش عنه فظاظة الألم وأضاف إليه حساسية في الجلد وخشونة جافة في الفم، غير أنه تهادى في خلوته في استيعاب الطرف المبتور، وكانت الساعة البيضاء الدائرية تنسج الثواني من أنفاسه البطيئة، وكأنما قد ربطت عقاربها بسلسلة ثقيلة.. الوقت ثقيل كصخور جبال القرى الجنوبية التي يعرفها، وبدنه المتراخي يحسه ثقيلاً، وفراش السرير.. محفور من وسطه كأنما من ثقله تحت المريض قد شابه الطحلب المشبّع ببقايا الماء، و.. انفتح الباب فجأة.

** ** **

أدرك المريض ولأول مرة.. كم هو صعب أن يقف على قدم واحدة، ولم يفتح باباً من السياق إلى من ظن بنفسه بين عشيّة وضحاها أنه لا يقدر على المشي أو التنقل، وأن مسافة تقاس بالمترين ما بين السرير والحمام.. هي أعظم امتحان على إثبات قوى العزائم المنسية في القدرة البشرية، لكنه لم يسلّم لمعطى نظرية العجز والقبول، فقد استوي هذا الصباح جالساً، واستدرج الجهاز الموقوت الثابت فوق رأس العمود قليلاً.. قليلاً، وحاذر ألا تُنزع الإبرة المندسة في عرق اليد، ثم دلّى قدمه السليمة إلى جانب رفيقتها، فاكتشف الفرق بينهما بذهول متقزّز، وقارن بين دواخله الطافحة بحب الحياة والناس، وبين رجله.. فوجد أنه لا رابط بين المتناقضين سوى الأداة المبتورة.. فقرر أن يجرّب الوقوف، لحظتها بالضبط كان الباب قد فُتح دون طرق، وكانت الممرضة تدخل وبيدها جهاز صغير بحجم الكف، تريد أن تختبر نسبة السكّر في الدم؛ فاستعان بخبرتها ومعونتها. لم تتردد، كانت تخلف في دوام عملها تلك السابقة ذات الوجه الخشبي في البارحة، ومدّت يدها

لتساعده على النزول، لكنها لم تستطع أن تمتلك ذراعه اليمين، إذ ارتخى كأنما انفكّ عن قبضتها، سقط المريض على جنبه اليمين كما لو أن ثقلاً أضاع توازنه فجأة.

حدث دون مقدرة على استيعاب خلو القائمة اليمنى، فكان أن اتكأ البدن على الجرح الطازج، فأنعم بمقدار من النزيف والألم.. الألم ما عاد صعباً على «زاهر» ولو ارتفعت درجاته، فهو «بيّاح» كما يقول.. إنه زائل مهما تطاول في طغيانه.

إن زمناً يقارب ربع قرن، ضرب فيه «زاهـر» سفراً بعيداً من مصالحة المرض.. كان آخرها جرح «الغرغرينا» الذي تفاوض معه منذ أشهر تسعه ؛ لم يكن نهاية عثرات المكرمين، الألم.. حتى وإن كان مفاجئاً محفزاً لغضبة الوجع ؛ لن يكون جديداً على خبرته، غير أن زعقة المرضة التي نفذت كزعقة أوزة مخنوقة.. أوشكت أن تدخل في صبره الجاهز بعضاً من مخافة.

لم يعد كما رأى اللحظة، بقادر على مصالحة المضاعفات، كان ذلك يخيفه.. لقد أدرك دونما أي استزادة في التجريب والوقت.. أن من الصعوبة جداً على امرئ فقد توازنه في ذات ظرف، أن يقف على قدم واحدة، وللمرة الاولى .

(لقد كانت لعنة التوازن أمراً مضنياً، ويستوجب دون مراعاة اصطحاب شخص مساند منذ سنين تزيد على العشر، وكان في كل مرة يحتاج فيها الخلو، أو الاعتماد بذاته على ذاته ؛ يستعيد بداية حبل طوله عشر سنوات.

كم من الدوائر الحمراء ستملأ مربعات الاحتياج بالانفراد طيلة استمارة السنين العشر ؟، لقد تمنى مراراً لو يفقد قسطا ثقيلاً من

سمعه مقابل عودة التوازن إلى وقوفه أو مشيته.. سمعه بالتحديد، ربما لأنه إحدى القنوات السليمات اللائى لم تتعرض للخلل.. ربما.

ربما كان ذلك يعني له نوعاً من التحرر...

لقد رأى أنه لم يفقد شيئاً معجزاً، إذ يقوم بطبيعة مقنعة ؛ بمزاولة أغلب أعماله، ويحيا.

لكن.. كم من الوقت يحتاجه المبتلى كي يعلّم الناس بضرورة التوازن ليتوازنوا مع فقد توازنه! شأن معذّب فكّر أن يتجنبه، أو يتجنب بقناعة ميسّرة: «أن ليس للآخرين سوى الظاهر»، أما حدائق الجمال المدفونة في بطن الظواهر ؛ فهم عنها وفي غير علم غائبون.

كان الشتاء قارساً سنتها على البدن النحيل المتربي تحت الشموس، وكانت البنود التي لاخيار في مرارتها تستوجب إقامة المجبر في مدينة باردة منذ أذيال أكتوبر مروراً ب«طوبة» الشتاء و«أمشيره» بالقاهرة، دفعته آلام في الجنبين وأسفل الظهر المفاجئة إلى عيادة الطبيب، وكان الطبيب العجوز موصوفاً بالخبرة في الأمراض المزمنة وملاحقتها، فكان أن عمد إليه شاكياً. وصف له بعد الفحص المعتاد ؛ دواءً لن ينساه أبدًا، مع قائمة إضافية من الحبوب و «الكباسيل»، ما أن فرغ من استعمالها حتى دارت به الرأس، واهتزّت الصور في العين، وتورمت الأطراف، وضاق الصدر بالنفس، واستحالت قدرة الماشي بقدميه على الخطى فما خطى وحيداً بعدها.

السنة العجفاء من ذيل «أكتوبرها» إلى رأس دائرتها، تمرّغ في قلقها وانتظار أخبار الأصدقاء المبعدين والمسجونين، وكانت المعيشة المقتّرة تنوء بالغربة والمخاوف والمرض، وهو لايدري أي سبيل أبسط عبوراً سيجتاز، وبأية طاقة يصل.

لقد عرف طعم المرارة وقت إذ يبكي أوساط الليالي وحيداً لا يجد قيمة الدواء الذي تستحيل الحياة بدونه، ابتلع معونات مهربة كما يبتلع كُباب التراب، ودرس بعناية كيف يفرك أنفه في الجدران حتى ترعف من العزّة ولا يقايض بمبادئه التي أولج بسببها هذا المصير.

وجاء يوم بلغت فيه الحال أن وجد نفسه في مستطيل ممدود، على جانبيه أسرّة فقيرة مزروعة بالمرضى.. لقد نُقل في «غيبوبة سكّرية»، نال إثرها على إقامة مكرهة فقيرة حدّ الشحوب؛ لمدة يومين أغبرين، ضعف فيهما بصره وخملت أطرافه وحيلته داخل المستشفى الحكومي.. آثر أن يستعين بقناعاته في معادلة الذات بالآخرين.. فهنا هنا، وهناك – في ما لا تبلغه الحيلة – هناك).

** ** **

الطبيب في مروره اليوم على «زاهر» قال؛ إنه لم يجد خياراً غير عملية «البتر»، وكانت هذه الكلمة تعني للمريض معنىً صعباً لا يليق بحال من يقيم محبّة مع الأمل، وكأنما تدل على الفصل بينه وبين الجمال والمواصلة.. لكن ما الذي يهم.. ليسمه الطب ما شاء، أما هو فإنه ليس يائساً كما تعوّد الأطباء مع مرضاهم، فخلق لديهم صنفاً من التعامل بالمواساة المشْرفة على الشفقة ونثر كلمات العزاء، وكأنما هي واجب في إطار المعالجة..

(مساكين.. تعلّموا في أكاد يمياتهم أن يواسوا مرضاهم، أو يضيفوا إلى نفسياتهم بهارات من التزوّد بالصبر والاستسلام، كالوقوف الحائر أمام موصدات الأبواب.

وقتها تسري في الدماء مخافة وتوجّس وقلق من مصائر الحالات! يا للغباء.. مم يخاف أولئك الذين يرون الموت يعابث عروقهم،

ويخاطبهم على أكفهم منذراً بالتهديد بين غمضة و غمضة ؟!

الموت قرين الخائفين ،وربيب المترددين ،إنه لا يحتاج إلى تحدّ أو بطولات خارقة.. كلها لا تجدي ،ولا تهزم جناح بعوضة.. الأمر بكل يسر ؛ يحتاج إلى مقاومة يسيرة.. بل إنها ليست مقاومة، وإنما تفهماً وإدراكاً بالثقة في محبة الناس والحياة.. الحياة جميلة، تستحق أن تعاش لمن يبادلها العشق، تشترط تحديد الهدف ونبل التفاني من أجله، حينها لن يكون للأسباب المعطلة مكاناً)

لم يكن «زاهر» ليدرك بالتمام سبب إيمانه المطلق بشرعيته في الحياة..إذ أنه ينسى في العادة كونه مريضاً ؛ ويحتقر هذا المصطلح الذي يرى الناس من حوله يعاملونه من خلاله ؛إنه يحتقر ألا يعرف الناس أن نقص الصحة أو فقرها فيهم ؛مخيف إلى مشارف القلق. أليس الخلل في موازنات الطبيعة والحياة ؛ أمراً معلوماً ،فلماذا لا يكون الخلل الصحي في الأبدان جزءاً واقعاً في شأن الخلل ؟، ولماذا يهيؤون ذواتهم للوقوع أو الانصياع بخوف وانهزام !

** ** **

هو يعلم أنه لا يستطيع أن يملك القدرة على التحكم في قوانين الطبيعة والكون.. وليس من الحكمة بمكان أن يفترض هذا المفهوم في كل الناس، ولكنه يود لو يعلمون كيف أن أقوى الأشياء وأضعفها تحتاج إلى علم بأن مديرها هو الإنسان الذي يصنع ما يبدو للآخرين مستحيلاً أو بالغ الصعوبة إلى مستوى عدم التحقيق.

«زاهر» كثير الفكاهة.. يقتنص نوادر الضحكات ويعبث ببعضها، أو يملّحها كما يُقال، لكنه حين ينكفىء مع أوجاعه وحيداً.. حيث الصحة لا تعار، فإنه لا يحاسب أي سبب خارجي بما في ذلك

مضاعفات ونوعيات المرض، وإنما يعيد الأمور إلى التزاماته التلقائية بفعل التكرار في حرصه على تطبيق نصائح وجداول المقتضى الطبي، فيلوم ذاته لو نسي دواءً في موعده او نفذ منه دون متابعة. لقد اصبح من البديهي أن يهتم بعلاجاته أكثر مما يهتم الناس بمأكلهم ومواعيد عملهم ونومهم، وليس سهلاً عليه أن يفرش أسنانه بقدر ما هو سهل أن يوخز نفسه بإبرة الصباح والمساء.

و..الليلة، كان طبيبه في هذا الشأن، قد استلّ كل محفّزاته، واتهم مريضه بهتاناً بعدم تعاونه، وشحذ قوى الممرضات العسكرية الصارمة للوصول إلى نظام دقيق في ضبط مستويات الارتفاع والانخفاض المجنونة.

كره «زاهر» هذا التعامل الخشبي القارس من الممرضات «الكنديات»، كن على الغالب في متوسط ما قبل التقاعد بقليل، وربما تجاوز بعضهن هذا الحد، وليس من اللائق أن يجردهن من الخبرة، غير أن المصيبة التي لا يقدر على هضمها.. هو أنهن مزودات بقناعة انخفاض الوعي بقوم جئن للعمل من أجلهم، دون أن يكون:زاهر«قد وضع بباله سبب الحافز المالي، ولم يفكر في هذا الأمر بقدر ما كان يقدّر عطاء الجهد الآدمي».

كان كل شيء قد نقل حسبما يشهد به السمع والبصر ؛ من أمريكا.. كل شيء حتى المحاقن البلاستيكية والمناشف وأعواد تنظيف بقايا الطعام بين الاسنان، مع أن مثيلاتها تصنّع محلياً، ولكن كيف يمكن لنظام المستشفى الكبير أن يكون أمريكياً دون أدوات وكوادر أمريكية!

حمق المريض، وكاد أن يلفظ السباب مع طبيبه، لكنه قال في

نفسه: لعله معذور حتى يُعامل مريضه الحريص كما يُعامل طفلاً تجاوز التوصيات وأغدق في تناول الحلوى.

لكنه مع وخز جديد في حواف الجرح ؛ نكّس رأسه وسكت.

(**يا إله الأوجاع والمرضى..**

لماذا كل هذا القيد التمريضي الذي تقوم به هؤلاء السيدات الصفراوات.. إنهن يكدن يفرضن رقابتهن وملاحظاتهن العسكرية البليدة؛ حتى على حركته والتفا تته، بل إن إحداهن ضغطت بعنف على ذراعه؛ لئلا يتمكن من ثنيها..، لن يشغل فتافيت مسرّاته الصغرى بهذه التوصيات، فالجوهر لديه معلوم).

** ** **

الليلة ؛ ليست يتيمة دهرها في عمر «زاهر».. فقد زحفت بساعاتها الطويلة على عينيه المنفرجتين، حتى لكأنهما لم تطرفا، فقد تكالبت أوجاع لم يعرفها من قبل ؛ مع أحلام تنازع المتعب في غفوات الثواني:

رأى أنه يُحاصر في غرفة مظلمة، يضيق نفسه في مكعّب لانافذة بحدوده الستة ولا باب، فجأة يتأجج قرب قعدته جمر بأحجام كبيرة على شكل جماجم قديمة تُكشّر أسنانها في قدمه المفصولة.. يكاد يختنق وهو يبحث عن منفذ فلا يجد.. الجماجم المجمرة تتكاثر والحرارة تحوّل الغرفة إلى مدفأة جهنميّة.

قليلاً.. تحركت القدم المفصولة وراحت تقترب منه ؛ حمراء تقطر بالدم وبسائل أبيض يشبه الحليب أحياناً.. لم يكن يختلط بالدم ولا يُمازجه في اللون، ثم برزت أمامه صورة قديمة رسمتها يد ماهرة،

امتلأت منها عيناه ووجدانه في طفولته، الصورة ذاتها التي كانت معلقة في جدار البيت بالقرية، لايدري لماذا عُلقت وبقيت طويلا إلى أن جاء مهذب اللفظ والملبس.. تحدّث مع جدّه حديثاً لم يكن يفهمه، كان يُحدّق في اللوحة ويبتسم طيلة جلوسه.. طلبها من جدّه فقام ونزعها بمسمارها وأعطاها له ،كانت خلف زجاجة رهيفة وبإطار ملزق من الورق.. غضب الطفل وقتها، وبكى في وجه جدّه بعد مغادرة الرجل.

كل يوم يسأله عن قصتها.. فيُجيب الجدّ إجابات قصيرة لا تُشفي فضوله الدائم.

الوحيدة في كل جدران البيت، وكأن الدم الذي يقطر متخثّراً من فخذ الفارس وهو على فرسه.. يكاد يسيل من أسفل الصورة إلى قاع الأرض، وقد كُتب فوق رأس الفارس وهو يحمل رجله المقطوعة؛ هيأها لقذف مبارزه.. كُتب بحبر أسود واضح «عمرو بن ودّ العامري»، وكان يُقابله على فرس بيضاء فارس بلحية مستديرة وعينين مكحلتين.. بيُمناه سيف مثل الذي في يد مبارزه؛ إلا أنه مشقوق الرأس، أما الكتابة التي سطرت بالأسود أيضاً فتنبئ عن اسم الفارس الذي اجتزّ رجل «عمرو» من الفخذ:

«علي بن أبي طالب» كرّم الله وجهه.. في موقعة «الخندق».

فجأة.. كان الدم من الصورة يقطر، ويسيل ممتداً إلى الجماجم المتوقدة أمام مقعده بالغرفة، يحاول أن يبحث عن فتحة ينفذ منها فلا يجد قدمه المفصولة تتحرك وتحدّثه بصوت يُشبه وقع الخطى على البلاط.. تؤنبه على موافقته للأطباء ببترها، فيجيبها بأنها كانت ترهقه بالآلام ولا تستجيب للعناية والدواء، وتقول بصوت موقع أنه

لا ذنب لها ؛ فقد كانت مجروحة زادها مشرط الجرّاح حتى ظهرت مفاصل العظم.

كاد يختنق، وعندما فتح عينيه بعد جهد للخروج من الحلم.. كان فمه جافاً كباطن الكف، وأنفه مسدوداً بالدم المتجمّد، حاول أن ينقلب على أحد جنبيه فلم يستطع، فالألم يكاد يشّل الرّجل من الحوض إلى الركبة، بينما كانت ذراعه اليسرى مقيّدة بالانبوب المغروس.. لم يكن ظمآناً.. لكنه يحتاج إلى شيء يفك يباس الفم والأنف، وكانت مرارة مصحوبة بالغثيان تطفح من البلعوم، وأحس برطوبة كالصمغ المموّه تكسو كل مسام البدن، واحتاج أن يحكّ بعنف أصابع القدم اليمنى التي بلا قدم، وطفح موج شديد من الحساسية الحارقة على جلد صدره، وتفجّر طنين ثقيل في أذنيه، وكان بطن يده اليسرى يهيج بالتنميل بغتة.

تمنى لو يُلقى به في غدير ماء بارد، وكانت الساعة الصامتة تبدو في عقاربها كتلك المبتسمة في الدعايات، ولم يستطع أن يحدّد إن كانت الساعة العاشرة وعشر دقائق، أو الثانية إلا عشر، بينما كان الضوء المثلّج يهطل من السقف.

بعد وقت حسبه ستين دقيقة منحوتة من الانتظار.. دخلت المرضة بهدوء، مدّت يدها إلى جبينه ثم خرجت وعادت بجهاز قياس السكر الصغير.. كان شكلها يطابق معرفته.. فقد انخفض السكر في الدم.. واحتاج إلى أي شيء مسكّر يشربه، غير أن الانخفاض الشديد كان يحتاج إلى مُنقذ سريع.. و إذ عادت الممرضة حاملة قربة«الجلوكوز»، غرزت رأس الإبرة في الأنبوب إلى الذراع وبقيت واقفة حتى نفذ المحلول المركز. كان الألم وملاحقته؛ لا يزال

ممتداً، فتحدّث «زاهر» بصوت أخنف إليها مُشيراً إلى قدمه، أشارت إلى الضاغط الذي برأس «الكيبل» الممدود.. لكنه كان بعيداً، قرّبته إليه ثم ضغطته ؛ قائلة بلغة إنجليزية واضحة:

- حالتك كانت منحدرة.. ألم تكن تُحس؟

- كنت في حلم مخيف.

- مخيف؟!

- نعم، وكدت اختنق من الجفاف.

- في الغد سأخبر الطبيب عنه.. وعن انسداد الأنف.

وكان شعرها الأسود القصير.. يحيط وجهها الكمثري الأليف إلى حدود الذقن، مما جعله يحدّث ببصره الضبابي بأنها شرق آسيوية.

** ** **

لم يكن «زاهر» يحب المستشفيات التي توجب حالته أن يقيم بها، في حالات متعددة.. تمنى لو يُحبس حبساً لا تهمة له فيه ؛ خير عنده من ضيافة المستشفى التي تقدم له الراحة والغذاء والعلاج، حدث في حالتين صعبتين، وفي أوقات متباعدة.. أن هرب بملابس التنويم دون أن يراه أحد، ولمّا لم تجده الممرضات وموظفو المتابعة والأبواب الخارجية.. قامت الإدارة بإبلاغ البوليس، وفي مرّات عديدة رفض روتينية النظام التقليدي الصحي؛ فاكتفوا بأخذ توقيعه واعترافه بمسئوليته التامة عن خروجه الاختياري الملحّ، وفي ذات حبس صحي؛ أقام عبره علاقة مودّة عابرة مع إحدى الممرضات.. اتفق معها على اللقاءات خارج المستشفى، قامت بدور المضحّي في تخريجه دون علم، وزوّرت حسب رغبته إقراراً بمسؤولية الخروج،

ثم حدث في أخرى أن صادق عامل البوابة الرئيسية في إحدى المستشفيات بشرق البلاد.. أحضر له ملابسه من غرفة ينام فيها معه ثلاثة مصابين بأمراض مختلفة،. خلع ملابس المستشفى وارتدى ثوبه وعمامته راكضاً إلى الشارع لاكتراء سيارة أجرة والعودة إلى البيت.. كل هروباته كانت إلى البيت، حيث يجد مسرّته مع الوحدة والموسيقى والكتب.

لا ينسى «زاهر» أول ظرف استوجب منه الإقامة في مستشفى، كان ذلك منذ ما يزيد على عشرين عاماً، حين أخذه جدّه محمولاً كالجرادة المنهكة من القرية البعيدة إلى المدينة الساحلية، وما أن كشف الأطباء مرضه المزمن في بدايته حتى بكى جدّه وفرح هو لأنه سيغيب عن المدرسة.

(كان الأستاذ من قرية مجاورة، وكان حاداً وغليظ العقاب مع كل التلاميذ.. لا يزال في عينيه إلى الآن ؛ طويلاً وممتلئاً، يثبّت عقاله فوق العمامة البيضاء جهة مؤخرة الرأس، ويستخدم يده اليسرى في الضرب بالعصا الحارقة.. يثنيها فيطويها إلى الذيل كالدائرة، ثم تعود في غمضة عين فتستوي مستقيمة، ليست من أشجار المنطقة القروية، فقد جاء بها من «مكة» أثناء الحج.. من «الخيزران» الرفيع، كان يهوي بها على المؤخّرات وعلى الوجوه والأكتاف لأتفه الأسباب، وحين كان «زاهر» المطيع المهذّب قد نال عقابه منها بسبب غيابه الصحي الأول في البيت.. حيث ضربه أمام طابور الصباح ؛ ولم يتفهم عذره.. بقيت بقلبه غُصة، لم يكن ليعلم بالمرض الذي جعله يشرب الماء ويتبول كثيراً ؛ إلى أن بلغت حاجته للخروج من فصل الدراسة عقب نهاية كل درس.

في يوم سبت لا ينساه.. اشتدّت الحاجة به إلى الفسح عن مثانته؛ وكان مدرس الهندسة شديداً.. لم يسمح له بالخروج، وماء المثانة حارقاً.. لم يجد حلاً سوى أن، يتدثّر على المقعد جانباً ويفرط بعضه في «علبة أدوات الهندسة»، ومع أنها علبة ظريفة يحرص على هيئتها.. لكن الحالة أصعب من أن تحتمل.

في درس القواعد المكتوب على اللوح في مواجهة التلاميذ.. لم يستطع قراءة ما كتبه الأستاذ.. ظنّه بليداً إلى حدّ عدم قراءته ما كتب، فجاء إليه وهزّه من أذنه بقوة تركت دماً متجمداً أسفل الأذن ووسط الذاكرة، لقد كانت عيناه تغشيان بضباب عرف سببه فيما بعد.

كان التعب والوهن يستبدان بقواه، فيتخلّف عن رفاقه وسط الجبل الذي يفصل بين القرية وموقع المدرسة، يكاد يجف من العطش، ويتضاعف الجوع على البطن الصغير؛ فلا يجد في الجيب شيئاً يُؤكل أو قرشاً يشتري به ما يُؤكل، وكل الرفقة في الشأن سواء؛ إلا أنه يختص ببوادر مرض لم يعرف نوعه إلا حين سافر به جده إلى المدينة بعد حالة إغماء؛ لم يستطع طبيب الوحدة الصحيّة الفقيرة قرب المدرسة؛ تشخيص الحالة.. فنصح الجد بالسفر إلى المدينة قبل مفاجأة الموت، كان يلهث ولا يعي.. يصرخ ويتأوه، والمسافة إلى المدينة بالسيارة المستأجرة السريعة؛ تقطع في ساعات ثلاث.

انتشى الولد بعد الصحوة بين يدي الطبيب الذي أوجب بالضرورة دخوله المستشفى لمدة لا تقل عن الأسبوعين.

لايدري حتى طرف هذه اللحظة الآسرة.. كيف دفع الجد تكاليف العلاج، لكنه لا ينسى العذاب الذي قضاه في ذلك المستشفى البحري بالمدينة الغربية على الساحل.. كان الليل حين يرخي ستارته

السوداء، يصب «بغُدْرتهِ» في الصدر، وكان المريض بين ثلاثة مرضى في سن كبير.

يسمع أن رجالاً في المدينة يتصيّدون الغلمان ؛ فكان لا ينام، وحين يغلُب عليه النوم.. يشدّ جسمه على السرير، وينام مستلقياً على ظهره.. تظل عيناه مأسورتان من الخوف بين الغفوة ويقظتها.

لصق سريره إلى اليمين، مريض أسمر قليل الحركة والكلام، لم يستطع من الخوف الجاهز ملء بصره منه، وفي الصباح.. بعد اضطراب قصير من الأطباء والممرضات، أسلم روحه)

** ** **

لم يحب «زاهر» المستشفيات، فمع أنها مربوطة بضرورة وضعه الصحي كالقدر المحتوم، وبالرغم من تكرار الحالات المتزايدة، التي كان من الطبيعي بحكم العادة والحاجة.. أن يكون قد تآلف مع أجوائها، إلا أنه يجد في ضلوعه نفوراً دائماً.

قبل عام، وفي مثل هذا الفصل من السنة الماضية.. سيق بضغوط الألم والسهر وفتور المهدئات المتنوعة في بدنه.. بسبب جرح لا يعلم كيف بُعث تحت بنصر يده اليسرى.. رأى طبيبه بالمستشفى العام أن يتولى متابعته كل يوم، فبدأ بصور الأشعة، حيث أوضحت أن عظام الإصبع سليمة مع ضعف في التروية الدموية يشمل الأطراف.

كان «زاهر» يحمل قطعة من الجمر في يده ؛معصوبة بالشاش الأبيض، وكانت الجمرة المتأججة المسمّاة بإصبع الخاتم الزوجي؛ تتغذى من وجع حاملها فينة ففينة.. ورأى الطبيب أن يجعل جبارة من الخشب بحجم امتداد الإصبع.. برباط وثيق.. لم يأبه الألم،

ولم يظهر على رأس الإصبع تغيّر في اللون.. لم يهدأ.

كان الليل في العين والقلب والعصب.. يجر الثواني الساهرة كما يجر على وجه الحي رؤوس المسامير.

خُلع الإصبع من مضرب جذوره ولم ينتبه له مثلما تنبه لفقد رجله بين عشيّة وصبحها.

** ** **

الغرفة التي تُشبه في جدرانها وسقفها، الفّلين.. كانت نافذتها المستطيلة العمودية.. تلقي بفتحتها نحو الشرق، غير أنها لم تبتسم لطلوع الشمس طيلة إقامة «زاهر» بستارة مخمليّة.

عبر الزجاج العاكس الذي يُسمونه «أراك لا تراني».. تظهر رموش نخلة خضراء، كانت جامدة لا تتحرك وكأنما رسمت على الزجاج، فمع أن الطقس البارد في الخارج ينفث أحياناً في العصاري هبوباً شمالياً ؛ لكن لا يهتز لها رمش.

لقد ظهرت كل الأشياء فلّينيّة ناشفة وساكنة، النوافذ البعيدة في الواجهة الجانبية للمستشفى الكبير.. جميعها مغلقة ومشدودة بإطارات الألمنيوم الذي يُشبه الفلّين الشاحب، نافذة واحدة معلّقة في الدور الرابع ؛ كانت تنضح في الليل بضوء أصفر، ثم تسدل ستارتها فتبدو خاملة الضوء إلى الصباح، أما النوافذ الكثيرة المتقاطرة على الأدوار.. فلم تكن لتكشف عن حياة.

كل شيء شاحب وفلّيني حول الغرفة وداخلها، حتى الأغطية ومخدّة السرير المعبأة بالهواء.

أنفاسه شاحبة، عيناه المضببتان تجفّ في التحديق الباهت في

اللاشيء، كما جفّ فمه وأنفه وبلاعمه. في الركن نبتة بأوراق حمراء عريضة، تهطل من جوانب قاعدتها كآذان فيلة.

(يا للعذاب.. هل تحولت مشاعر الناس الطيّبة إلى فلّين.

عندما دخل عليه هذا الصباح، خبير التدريب الطبيعي.. قال إنه سيُصبح ذات يوم مثل الآخرين.. يقف و يمشي على اثنتين !

– كيف؟

– بتركيب طرف صناعي.

– طيّب ومتى ؟

– ليس قبل ثلاثة أشهر من اليوم.

راح يسأل الخبير بتفصيل عن الرجل البديلة، أجابه باقتضاب ألا يستعجل ؛ فسوف يرى الطرف ويتعوّد مع الأيام عليه.

(يتعوّد.. لا خلاف، حلّ جميل.. لعلّه يكون أيضاً من الفلّين الشاحب، أو الصلب، غير قابل للكسر أو الانثناء، لا يهم، الأمر يغدو ويجيء حول إمكانية تعويض الفقدان، لا يريد أن يحيا عاجزاً.. العجز أشدّ خطراً على البشر، يُريد أن يعتمد على «حيله» دون مساندة.. أن يتحرّك في حدود احتياجه الممكن، يصنع قهوته.. يرتّب حقيبة أوراقه ؛ يُحمّم بدنه ويحكّ جلده بظفره أنّى احتاج، يريد أن يغمر انتشاءه اللذيذ في صدر امرأة يحبّها.. يخوضان التحام البدن والأنفاس والعقل والرغبة، يُريدها هي دون تراجع ولا مقدمات أو حواشي، يريد أن يصرخ بصوت له نقر الطبول:

أيها العالم تقدّم؛ فالزهور قويّة بجمالها وشذاها ونقاء ألوانها، وأن

المطر يستنطق شقوق الصخور بالإنبات، وأن الطرف الصناعي ليس أكبر من أطراف الضلوع الباردة أمام دوران الأرض، وضحكة الشمس وغناء النجوم).

احتقنت مثانة «زاهر»، وكادت تُشبه الرصاصة، كان الدواء الذي يستدرّه بالضاغط من قربته المعلّقة ؛ وقت قبضة الألم يمر على بعض وظائف الأعصاب بتأثير يبلغ التعطيل، و..

استدعى الممرضة وأبلغها.. وبعد غياب قصير حضرت ومعها أنابيب «التقسطر»، فاستعد، المذبوح لسكّين الذابح دون كلام، أن سيحتمل ولو عصر الوجع مفاصله ليرتاح بعدها..

(يا لصدف الحالات، كان قبل عامين؛ مضتا على زرع كلية صحيحة.. يتمنى أمنية المستحيل، لو يخلّص جسمه من زيادة السوائل، التي تتوزع في الصدر والبطن والأطراف، حتى تنقطع أنفاسه، فلا يستطيع الحلّ الذي لا يخطئه مريض «الفشل الكلوي».. تنقية الدم من السوائل والسموم والأملاح، لم يتجرأ الأطباء للتفكير في زرع كلية له، كما يجري مع مرضى القصور المزمن للكلى، كان «زاهر» قد ألف جداول الحضور الذي لا بديل لها غير الموت ؛ ألف جداول الممنوعات، وجداول أدوية، وجداول الحضور اللازمة بدقائقها وساعاتها، وألف زملاءه المرضى، ووجوه الممرضات، لقد تمنى في سيرة طويلة؛ أن يشرب الماء حتى يروى، لم يكن قادراً أمام الالتزام أن يلبي هيام الظمأ للماء في عروقه، والآن في هذه الغرفة الفلّينية.. يودّ لو يُريق ماء المثانة، يا للبهجة: فليرقه حتى ولو أدخلت الممرضة سيخاً حامياً ؛ فلن يكترث، فقضية العالم في نظره الآن.. تتجمّع على هيئة قربة مضغوطة في الحوض).

أحسّ «زاهر» بالأنبوب الذي «تدحشه» المرضة في المثانة، وكأنه سيخ، لم تكن آبهة بأمر الألم.. الألم الذي لا يفهمه إلا من يجرّبه، ارتاح بعدها بدقائق، وأحسّ أنه يمتلك راحة مبهمة.. غبط نفسه عليها، وتمنى لو يوزّعها على مرضى العالم.

** ** **

كان «زاهر» يكره أن يقضي ساعاته في الصمت الفلّيني البارد، الذي يأتي من كل تفاصيل الغرفة، فكان جهاز التلفزيون الصغير يبخّ من قناته الوحيدة، برامجه التقليدية المضنية، ولم يكن ليعنيه، لا في صوته المنخفض، ولا في صورته الصغيرة التي لا تكاد تبين، لكنه لا يحب موت الأشياء، فكلّها في الغرفة.. لا تشير إلى أن حياة العالم وحركته، تقع بعد الخروج من الباب الذي يلج منه الدواء والطبيب والمرضة والأصدقاء.

الأصدقاء جواهر حياته، ونخيل حدائقه العالية التي تنبيء بالشمس والمطر، وحاجة الضلع اللافح لنسيم الهواء..لم يكن في يوم قد أحس بحاجة إلى أقربائه، فهم من أولئك الذين يضخمون المآسي، أو يضيفون إلى المصائب مقادير مجانية ؛ لاعلاقة لها بما يُعاني.. زيارتهم على عموم تاريخه الصحي، تضيف إليه هماً، فكل تصرّف أو كلمة يوجهها، يجب أن تكون مشروطة بما تعودوه في تقليدهم وعاداتهم ،إنه يصاب بالحرج وبالواجب ،والتزام الوصاية، وحيث إنه يسايرهم ،ويقدّر حضورهم، تقديراً إنسانياً.. فلا بدّ من الخضوع لوقت يهبهم فيه الطمأنينة والحال المتقدم نحو الشفاء.. «الشفاء العاجل» كما يقولون.

يستطيع «زاهر» أن يبتهج ابتهاجاً لا ينفذ رصيده بأصدقائه، فهم

يمدونه بالأمل والجمال والإنسانية.

** ** **

قبل دخوله مستشفى العاصمة التخصصي، كان قد نُقل بالتحويل من مستشفى المدينة الساحلية.. قضى به شهوراً ثلاثة، كان جرح القدم صغيراً فترعرع وحفره الطبيب إلى أن ظهر العظم و.. لم يلتئم، كان الطبيب ودوداً حميماً، ونشأت بينهما صداقة، مضى إلى حد أن اليوم الذي لا يراه فيه.. يجد نفسه وكأنّما فقد رونق وجهه «الأبنوسي» ذي الضحكة العالية البيضاء... كان يدخّن قرب السرير ويشرب الشاي، ويتبادل معه الآراء وحوادث نشرات الأخبار في التلفزيون، و كان الطبيب يحبّ «انيشتاين» ويعجب بنظريّاته.. فيردد:

«منذ كنت طالباً صغيراً، وأنا أقرأ عن انيشتاين» ثم يذهب ليقصّ لمريضه عن حركة الأرض والزمن ونسب التباعد والتقارب، فيُصغي المريض ويُجاذبه أحاديث العالم النامي، ثم يدخل الآخر في شكواه الأبدية عن عدم توفّر خيوط الجراحة بالمستشفى.

أحبّه «زاهر» لصدقه، قال له مرّة.. كأنما يطلب اعتذاراً، (وكان بإمكانه عدم الإفاضة):

- اسمعني يا زاهر.. أجدني مخطئاً ومذنباً، فقد تأخرت في معالجة جرح القدم.. على افتراض مني، بأنه لا يحتاج إلى جراحة.. سامحني.

- لا تقل هذا ؛ يا دكتور.. أنت لم تقصر.

- صدّقني.. أنا لم أصادف جرحاً لا يلتئم كهذا الجرح العنيد.

كان «زاهر» شديد الثقة بأطبائه، وكان يستبعد أن يرى نهاية الحلول في قدمه، الاستئصال، لا يرغب في التفكير طويلاً في هذا الأمر الذي لا يتوقّع حدوثه، لقد قال يوماً لطبيبه، إنه يُفضّل الموت على أن يجد نفسه عاجزاً. كان صادقاً.. و لم يكن قادراً على تصور أن يعيش بلا قدم، إن ذلك يُحدث في بدنه موجاً من الحرارة الكاسحة، كفعل تلك الحقنة الملوّنة التي تسّح في العروق، حتى يزداد خفقانه، ويتحوّل لعاب فمه إلى ما يُشبه طعم الدم.

عندما سكت الطبيب ولم يتكلّم، أوجس «زاهر» أن الحال قد لا يطمئن، لكنه يتعلّق بالقشّة في البحر.

ثلاثة أشهر مكثها في الغرفة (٥٠٥) يفصل بينها وبين التي رقد فيها قبل سنتين ،وقت إذ أجريت له عملية زراعة كلية، سرير..

لا بأس، فهو يعرف كل المرضى في هذا الجناح، وكل الممرضات، وعاملات التنظيف، وعمّال المراسلات، حتى أصبح صديقاً ضمنياً للجميع، كره الإقامة في السرير وأجواء الممرّات الرمادية، وطبق الطعام ذي الفجوات، ولون الأغطية الأزرق الداكن، والنافذة التي لا تستوعب من خلف زجاجها المغلق أبداً، غير أسطح المنازل بالدور والدورين، ومكبّرات الصوت المزعجة على امتداد أسقف الدهاليز، كره كل شيء.. رائحة المطهّرات، المراهم، صبغة «اليود»، حبوب «الفلاجيل» المرّة والتي تثير الغثيان والصمت، الحقن الست التي كُتبت في جدول علاجه اليومي، كاد أن يكره البياض في الشاش والغيارات القطنيّة (٤ مرات يومياً).. تراكم الصحف والمجلات على حافّة النافذة، والتي لا يُبصر منها غير العناوين.

تمنّى لو يخرج ليرى الشوارع، وضجيج السيارات الملونة، أو

أن يذهب إلى البحر ويدخّن.. يُدخّن حتى تسودّ شفتاه، ويعلم الكميّة المختزنة في ضلوعه من حرصه على تطبيق كل شيْ في وقته، لكن..

كل شئ كما هو.. بلاطات المدخل الرمادي، مصاعد المعدن ذات الرائحة «المصنّة»، سكون الغرف المسكونة بالمرضى بعد وجبة العشاء.. الإضاءات المثلّجة في السقوف، وجوه الممرضات الفاترة.

** ** **

من الغرفة المجاورة، كان يأتيه أنين متواصل، يعلو ويُسمع بوضوح، يُشبه صوت شاب في أول سني المراهقة، عرف بعد أيام أن الذي يئنّ.. عجوز جاوزت السبعين، كان لأنينها وقت معلوم.. أصبح يُدرك بالضبط أن الساعة تّساوي منتصف الليل.

(لماذا لا يعطونها مهدئاً، أو منوّماً، لابُدّ أن لدى الأطباء مانعاً لا يعلمه، ولكن كيف يسكن خاطره وهو يُحسّ كأنما هو المسؤول عن أوجاع المرضى.. أمر مُتعب.. المثل يقول«يا طبيب طبّب نفسك» فإن كنت مريضاً فلا تنظر خارج حدود سريرك، لا.. ليس صحيحاً، فلعل الذين يهتمون بالآلام، ويتحفّزون وراء اكتشاف الحلول العلاجية ؛ جرّبوا الآلام وعرفوا وطأة الأوجاع، ربما إذا نفينا لهاث الشركات خلف المال على أي حساب من الأمراض كان).

سأل الممرضة ذات ليلة:

- ماذا قال الطبيب عنها.

- أعطاها علاجاً.. أقراصاً منوّمة.

- لكنها ؛ المسكينة لا تنام !

- نومها صعب، مريضة بالمرض السريري.

- هاه.. المرض السريري.

- نعم.. طول إقامتها بالسرير، جعلها تتألم من كل بدنها.

(أمراض يسمع عنها جديدة عليه، «الحزام الناري».. «المرض السريري «..» العقد الشعبية»، ليسمع أو لا يسمع، فالأرض تدور، والعالم يتحرك في الداخل والخارج، والشموس في كل صباح تسطع من جديد، ومن يدري، فلعل الناس الذين يصخبون بحركتهم في الخارج ؛ مصابون بأمراض لا يعرفونها، فالذي يبدو لنا فقط هو منظرهم وهم يذهبون ويجيئون.. نراهم فنظنهم جميعاً أصحّاء).

** ** **

«بندر» طفل في السادسة، على مسافة غير بعيدة، تركه والده وذهب ليعوده بعد خمسة أيام.. يسكن في قرية بعيدة، ويعمل سائقاً في شاحنة بين قريته والمدينة، وعد ابنه بالعودة بعد صلاة العشاء، وها إن الليل قد طغى منذ ساعات في كل عيون المنتظرين.

كان «بندر» الخائف يجيء إلى مكتب الممرضات، ويسأل بصوت مستغيث «يا سيستر،، وين بابا؟... تأخّر».

تأخذه بيده وتقوده إلى سريره.. ترفع سبّابتها في وجهه المذعور:

- اسمع.. لن تخرج مع أبيك ؛ إلا بعد أن تسكن في سريرك وتأخذ العلاج.

-..طيّب.

يستلقي على ظهره يمسح دموعه بصمت، ويمنح ذراعه للممرضة التي أحضرت محلولاً، وعلّقته على المشجب العمودي.. غرزت الإبرة في الوريد... يحك بقدميه ملاءة السرير ويستغيث «الله يخلّيك»، ويبقى مانحاً عينيه نحو الأنبوب الشفاف.. يعُد نقاط المحلول ؛ نقطة.. نقطة، تزيد النقاط عن حدود معرفته بالعدّ، فيعدّ من جديد، ولا تنتهي القربة المضغوطة.

يلتفت إلى يمينه، يسأل الأم التي مكثت شهراً مع ابنتها المعلولة:

- عمّتي متى يجيْ بابا ؟.

- سيحضر يا حبيبي؛ في الصباح.

- لا.. لا، قال لي بعد العشاء، واليوم ثلاثة أيام.

- لا تخف يا بندر.. عندما تنتهي محاليل القربة ؛ يكون قد وصل.

يعود إلى العدّ من جديد، يهدّه التّعب فيغفو، تقترب من سريره تلك السيّدة، وتُغطيه في حذر، يصحو مذعوراً.. ينشج بزفرات متقطّعة سريعة.. يفرك عينيه ؛ ثم يغفو، والقربة لا تزال ترسل قطراتها ببطء.

(يتذكر «زاهر» إذ أودعته أمه مع خاله المقيم بشرق البلاد.. ثلاثة أيام عبر الطريق البري بسيارة الأجرة... كان يخجل منه ويخافه، يعلم أنه ربّما كان ضيفاً بالكره عليه، فالخال ذو الدخل المحدود لا يحتمل ضيفاً... ضيفاً مريضاً في أول الشباب، ويحتاج إلى الغذاء والكساء والدواء. لا خلاف في أمر السكن.. فقد كان الخال يسكن

وحيداً في غرفة بمنافعها. بقي معه أياماً، كانت كل الأشياء جديدة عليه، حتى الماء المائل للملوحة لم يستسغه، وجوه الناس المُتعبة بعد انصرافهم من وظائف شركة الزيت، لهجتهم.. نومهم المبكر واستيقاظهم قبل طلوع الشمس، هدير الحافلة الكبيرة حين تمر من الشارع لتُقلّهم إلى العمل، الطقس البارد المرطّب.. البراقع السوداء التي تضعها النساء على وجوههن حين الدخول والخروج، نوع الخُبز «الهولي» الرقيق، طعم الحليب المعلّب، الأرزّ المطبوخ بالسمن مع السمك، الراديو الذي يُذيع أغان خليجيّة حسنة لم يسمعها من قبل، البنطلون والسترة؛ يكاد كل الرجال يلبسونها.. كل شئ كان جديداً وغريباً في عين القروي الطازج.

بعد أيام أخذه خاله إلى المستشفى المركزي، فرأى الطبيب أن يُبقيه فترة في عنبر المستشفى، كان رأي الطبيب يُزلزل ضلوع المريض الذي يكره حبس الغرف العلاجية، وكاد يرفض لولا خوفه من عواقب التوبيخ الجارحة. لم يكن ليجد في صحّته ما يدعو للدخول في وحدة المستشفى، لكنه بلع مرارة الأمر ونفّذه على كره شديد.

نحيلاً مصفرّ البشرة وساكناً كعصفور منتوف الريش.. اشترى له الخال ملابس داخلية بيضاء، وحلق له الحلّاق رأسه، أخذ معه كأساً للشرب وملعقة، ومنشفة؛ مثلما يفعل المرضى و.. دخل مُثقلاً بالهم لا بالمرض، قال الطبيب، لعله يحتاج إلى أيام قد تطول أو تقصر لكي يتمكن من تنظيم السكر في الدم، ويضع له جدولاً للطعام، وأشعّة لأجهزة الجسم، قبل كل وجبة وبعدها بساعتين؛ كانت الممرضة تطلب منه عيّنة من البول، فكان يضيف في مرّات إلى البول؛ قطرات من الماء.. يُريد أن تكون النتائج منخفضة في نسبة السكر كي يخرج من السجن، لم يكن يعلم أن تحليل الدم يكشف الاحتيال.

بقي ساهراً الليلة كسابقاتها، يسترجع بشوق وخوف قريته وأمه واخوته.. يبتلع غُصّة الغريب حتى يظهر نور الصبح، ينتظر زيارة خاله وقت العصر.

يتسلل من الغرفة إلى الممر الذي توزّعت على جانبيه أبواب الغرف، كل باب يحتجز وراءه أربعة مرضى.. رجال بمختلف الأعمار، يستلقون كأنما يتهجّون السقف الذي قبّبت قشرته البيضاء بالرطوبة، وفي وسطه مروحة كبيرة لا تتوقّف.. تخبط بصوت يتكرّر في كل دورة، وكأنما يساير دقّات قلب سريعة.

يمشي في الممر حيث تقف ثلاجة الماء؛ ملتصقة بالجدار، ولا بُدّ أن يشرب، فالماء غايته الدائمة في الصيف والشتاء،.. في الليل يصحو أحياناً ست مرّات؛ يشرب ويتبول ويشرب.

يتّجه يميناً...يفتح نصف الباب الزجاجي الكبير، وفي الفسحة العريضة المقفلة بباب ثقيل، بدا له أنه لم يفتح أبداً، كان السور يمتد عن اليمين وعن الشمال، لا يرى شيئاً في الخارج لكنه يسمع مرور السيارات الثقيلة والمتّجهة بقرب مبنى المستشفى البعيد إلى أقرب مدينة على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً، بين فينة وأخرى؛ تمر شاحنة.

تمنى لو يخرج.. يخرج فقط من سجنه المصيري... لقد عرف منذ صباه الأول معنى حبس الإنسان، وتقييده بالوصايا و المحظورات، عرف ألاّ علاج لها سوى المقاومة والخروج إلى الرحابة... الحريّة التي لا ثمن لها، ولا خسارة في فدائيتها، وعليه أن يملك الحجّة والقوة ليصل إليها.

القوة والصمود والحُجّة.. حيث لا يدين أحداً أو يلوم سوى نفسه

ومحاسبتها وإعدادها: ضبط موازين الصحة بجداول العلاج، كي يفك القيد، أو يخفف من قساوته، لكنه لم يدرك ذلك إلا بعد حين من الزمن بعيد.

وقَع مع الطبيب على ورقة يتحمّل بموجبها مسؤولية الخروج، وكالعادة إذا ما ضاقت به الإقامة... فعل).

** ** **

تأخّر الطبيب عن موعده الصباحي، وجاءت وجبة الغداء.. كان واجباً عليه أن يأكل (كُل يا زاهر، البروتين ضروري لك، اللحم هو الذي يبني في اللحم) لم يكن ليُحب الطعام، يتمنى لو يأكله مرّة واحدة في كل أسبوع ليتخلّص من الواجب الثقيل، يعجب من أولئك الذين يملأون فراغ همومهم بتعبئة بطونهم، المثل القروي يقول «ما يأكل، إلا العافية» ربما كان صحيحاً أو الظروف التي يمر بها المعتلّون، تتحوّل الرغبة في الطعام إلى كُره شديد، لكنه لا يُحب الطعام على مدى زمانه الفائت.. يتصوّر أنه كالبقرة عندما يقعد مُتفرّغاً من أجل أن يأكل.

لا بأس، الآن وضعت تلك الموظفة المستعجلة ؛ صينية الغداء ومضت كجناح طائر. بقي الطعام مكانه، كان يتقزّز من رائحته الدهنية بالطماطم والبصل المقلي، لن يُفكّر بمدّ يده، سينتظر الطبيب ليسأله:

هل سيمكث طويلاً هنا ؟

بعد وقت جاءت الموظفة لتحمل صينية بين يديها.. سألته:

- انتهيت من غداءك ؟

- نعم.. شُكراً.

والتقطتها بخفّة... يتحاشى أن يدخل معها في شأن «أكلت وما أكلت». لم تقُل شيئاً هذه المرّة، ولم يكن مستعداً لحكّ رأس أنفه.

دقّ جرس الهاتف عالياً، وكأنما خُصّص لاستفزازه، جرس معروف لا يخطئه من يكثر التعامل مع الهواتف، جرس هاتف كذاك الذي في الأفلام الأمريكية، لم تُفلح المحاولات في خفض صوته:

-آلو...

- مرحباً.

- كيف حالك، الحمد لله على السلامة.

- الله يسلّمك.

وأخذ الصوت يتحدّث واثقاً، وعالماً ببعض التفاصيل، لم يستطع تحديده... خاف أن يتورط في ذكر الاسم، فهو ضليع في هذه المسائل المحرجة، لكنه ما لبث أن استيقنه... صديقة طيّبة تُعاني من الربو، وتشكو منه بمناسبة أو بدونها، كأنما تحمل في صدرها فزع الأطفال... كانت تُحدّثه و صوتها يتقطع بين كل كلمتين أو ثلاث: «سوري.. آه، ماذا قال لك الطبيب سوري».

(لا تفزعي يا صديقتي، الجو بارد.. تدثّري جيّداً وابتعدي عن الغبار وصخب الروائح)، وأعادت للمرّة العاشرة:

- أيوه.. طيّب، و.. كيف حالك.

لم يتعوّد أن يتذمّر ممن يُهاتفه أو يُقاطعه، فكان في كل وقفة «سوري «يتزّود بدُفعة مجاملة، لا يريد أن يزعج أصدقاءه بأموره

الصحيّة..

- أنا بخير.. الحمد لله، شكراً على مهاتفتك.

في أحايين؛ يدق جرس الهاتف وهو في وضع المتألم، لكنه يردّ بصوت حيّ ونشط.

(لم يأت الطبيب بعد، لم يحس بأدنى رغبة في تناول وجبة العشاء، وقت إذ كان جهاز التنقيط المؤقت يُصفّر بتتابع، أن غيمة ثقيلة من الألم.. تمتد من ركبته إلى رقبته. كتم نفسه كأنما يريد أن يحبسه كيلا يطفح على الصدر، لكنه امتدّ بإيلام في الضلوع والأذرع... حاول الانقلاب على جنبه الأيسر، فكان يمينه ثقيلاً، وراوده شكّ، هدّأ من خفقانه... أهمل ذراعيه، وقرّر ألاّ يقلق، أما الألم فموجاته تذهب وتأتي بمناسبة أو بدونها.

كان جرس الاستدعاء قريباً.. فتحت الممرضة الباب وقصدت جهاز التنقيط لتُخرس صفارته.

لم يستدعها لإسكات الجهاز، وإنما لتبليغها بمكان الألم، أما السؤال عن مجيء الطبيب الذي تأخّر طويلاً، فسيؤجّله إلى الصباح. قرّر ذلك في نفسه، فالألم يستوجب الآن اهتمامه. الممرضة أوقفت الجهاز عن العمل كلّياً، وخرجت دون كلام، ثم عادت ومعها حفيدة تشرشل.. لم يرها منذ أسبوع، لعلهم يحتاجونها في الأمور التمريضية الصعبة، كان صوتها خشناً كصوت منشار الخشب... أخرجت من جيبها الممتلئ كحوصلة؛ عقداً منضداً بالمفاتيح الصغيرة، وأحدث صوتاً كهزّة السلسلة، ولم يتيقّن «زاهر» إن كانت قد عالجت بالمفتاح الجهاز، أم القربة البلاستيك التي نفذ ما بها من سائل، بعد وقت هرطقت فيه مع زميلتها.. استدرجت الضاغط من تحت كتفه، ضغطته فتسرّب

السائل ليزحف ببطء إلى الوريد، أكّدت بمجّانية أن عليه بالضغط هنا إذا ما أحسّ بالألم... لم يخبرهما بالسبب الذي من أجله استدعى الممرضة، آثر السكوت مع أن الألم بقي يسوق غيمته الداكنة في الشق الأ يمن من جسده وضلوعه..)

كان الشتاء يصب شراسة البرودة في عظامه، وكان قد عاد للمرة الثانية محمولاً، إلى المستشفى العسكري بالعاصمة ــ ليس بعيداً عن هنا ــ، دخله بالوساطة، حيث لا ينتمي للعسكريين لا من قريب ولا من بعيد.

خلّفه قبل أيام فرحاً بعد شهرٍ من التنويم المكره.. إلى مكان سكنه بالمدينة الشرقيّة، كان جنبه الأيسر مشلولاً، حتى نصف لسانه ووجهه. الطبيب شخّص الحالة دون تردد بأن جلطة مفاجئة استقرّت دون الرقبة... لم يكن بذي علم عن الجلطات وأخواتها.. لكنه لمس عجزاً يمنعه من الحركة.. بكى تحت الغطاء وكانت كُرات مُرّة تعلو وتهبط في البلعوم، إنه مريض فقد كان ذلك ميسوراً بحكم الحال لديه، ولكنه يرغب في الحركة ويكره حبس المستشفيات، و ها إنه يعود وكأن صفير الاجهزة «وكاب»المرضات، والبياض الذي يُغطي كل شيء.. لم يغب عنه دقيقة.

وقع في ذهنه ذات يقظة مباغتة، أن عليه المصالحة، فلا شيء يهين عزم وكرامة الآدميين كالمرض.

خضع بخديعة متواطئة لجدول العلاج وبكل تقبّل وحرص كانت النتائج الصحيّة تتقدّم.

قبل اكتمال شهر القمر.. كان يقف على قدميه وينفح بيديه الهواء.

لا بأس فقد كان الاجتياز مصحوباً بخبر يتوقّع حدوثه ذات سالف من السنين مضى، غير أن عظائم الأمور تنشغل عن كل ما هو دونها.

لقد بات وفي أحضان استعداده كابوس ينافر الرضا.. يرتمي كل ليلة بين ضلوعه:

في الغد.. الغد القريب كامتداد اليد في الضباب، سيدخل مرحلة لا يعلم نهايتها، ولا يدري.. كم تحتاج من طاقة الذهن والتكيّف، ولا كيف تُغسل أو تُكوى أو تُجفف الدماء.. ديلزة الدم.. الغسيل الدموي.. الغسيل الكلوي.. تنقية الدم من الشوائب، والسوائل، الشوائب!

- شوائب ماذا ؟

- شوائب ما يزيد في الدم من سموم.

-لم يتعاط السموم ؛ لا مأكلاً ولا مشرباً ؛ ولا فكراً.

لا تخلط أفعال زيد بأفكار عمرو.. قلنا سموم تحتاج إلى تنقية، ولا بُد من خضخضة الدم.. قطرة..قطرة وإلا...

- اسمعني جيداً.. أنتم تُجيدون التنظير، وترون أن بهجة الحياة وجمالها، خُلقت لكم أيّها الأصحاء، لكنكم تخافون من وخزة بعوضة، تخافون منظر الدم، تخافون أن يُصيبكم الصداع، وتتعاملون بشفقة مع المرضى.. لقد زرعتم في مفاهيم الناس، أن المريض جدير بالعطف، وأن كل المرضى في الحقل سواء..، دائماً تشتكون، من الوهم.. والتوقع، والشكوك، واختلاط المواقف في تحديد المفاهيم.. ثم تُشفقون على المرضى «مسكين فلان»!

-عفواً يا مريض، هل آلمك قولي ؟

- لا ؛ يا سيّد خائف.. احتفظ بفيزياء أفكارك.. أنت المتألم، فالذي يخاف من وجع البدن.. ينظر بمسكنة إلى أن الحياة تتجمّع في لحظة ألم حتى نهايتها.

الموت لابُد آت، وأنت تتألم.. لأنّك موجود، والوجود يعني الإحساس، والإحساس يعني أحقيّة الحياة، والحياة تنتهي بالعطف الساذج والإشفاق، وليس بفهمها وحبّها وتمثّل قيمها الإنسانية.. فالموت في أمر حقير ليس كالموت في أمر عظيم، كله نهاية نبض، لا نهاية قيمة.

- أيّة قيمة تعني ؟!

-أيّة قيمة ! إنك تضحكني، قيمة الفائضِ الشعوري، مضروبة في ثمن السلعة الدموية الخام، زائداً حجم الألم المهدور، مشفوعة بشوائب العطف الرخيص والشفقة المجانية المستوردة من مخازن الشفقة البليدة.

- كأنك تتحدى يا مريض !.

-ألم أقل.. إنك مسكين، كل أمر لديكم يعني التحدي أو الاستسلام، مقياس خاطئ.. أنت تخاف، وتدعو الله ألا يجعلك في مكاني، أتعلم لماذا ؟، لانك جاهز للاستسلام، وتظن أن نقيضه التحدّي، لا تتعبني، فإني راض بأحوالي،وأجد في قيمتي التي لا تُقاس بالعرض والطلب، معنى للحياة لا تدركونه فمن هو الذي «يسقى بالفولاذ» ؟)

** ** **

أيام تمضي في الغرفة الفليّنية كما يمضي الوجع في الضرس، «زاهر» يهيئ لسانه ليسأل طبيبه عن اليوم والساعة التي سيكتب له فيها الخروج.. لكنه عندما يقف قرب السرير للاطمئنان عن سير الإقامة والعلاج ؛ لا يسأله، يظن أنه لو سأل فربما يعني الاستعجال، في ترك المستشفى وبنود العلاج، يخاف أن يلوم نفسه على ما فعل بها من العجلة والهروب، فيؤثر الصمت، وعندما يأتي الليل بغيومه يقول: لو أني سألت

أحسّ يوماً بأن عليه أن يكون أول المتأقلمين مع حالته الراهنة، التي تعني بالضبط..(لا تتذمّر من وضع الرجل، أو تذمّر كما تشاء.. الحال واقع، ومكان البتر ليس في الرجل، إنه في قلبك وشعورك، رضيت أم أبيت، و إن أبيت ؛ فاشرب ماء المحيطات الأجاج، أو سُفّ رمل الصحاري حتى تترع).

اليوم جاءت صديقة له طيّبة لتقرأ عليه، وبعد وقت.. فجأة استأذنت وخرجت في رمشة طرف، استاء من وضعه، فقد حضرت الممرضة لتطهير مكان الجرح وتبديل الغيار.. صديقته.. لم يكن الظرف مناسباً.. كانت مسامعه مع الصوت وهي تلتقط الحروف من الكتاب ؛ بين أصابعها وبين أصابع الممرضة، لعلها أحسّت بجرح في ظنونها.. لعلها لمست ألماً في بصرها.. لعلها، ولعلها، فآثرت الاستئذان والخروج، حاشته الظنون، وأبعدته عن استيعابه لحالته، حين قارن تصرفها بمستوى فهمها.. استبعد فعلتها التي وخزته، لا يريد أن يجرح بجرحه أحداً.

في مناسبة قريبة، هاتفته، اعتذرت عن خروجها المفاجئ.. قالت إنها تذكرت وقت غداء طفليها في البيت فخرجت كالملسوعة، لم

يمدد في حبل الكلام، سكت، فهو لا يُفضل أن يوخز الآخرين في جوارحهم.. بقدر ما يفضّل أكل رطل من «الزقّوم».

في الغد حضرت وكان معها دفعة من الرغبة في القراءة، قرأت:

«أنا لا يعنيني أي مسمّى للحكومة.. يعنيني أن تكون الحكومة مناصرة للفقراء».. تتوقف وتنظر إلى حاجبيه المرتبطين، و.. تواصل في قراءتها، أحس بوخز يخترقه من مكان الجرح إلى منازل القلب يسأله عن رأيه، يهز رأسه باقتضاب أكملي، تتابع.. تتوقف قليلاً، لم يكن لينظر إليها، تعوّد أن يسرح في صنع صور لما تقرأه، شكرها بصدق، لملمت عباءتها على جسدها النحيل، وخرجت كنحلة.. تساءل:

كم هو الإنسان صغير لولا عظمة طموحه:

«أيها الأصدقاء العظماء.. سلاماً»، نسي الآهة، إن الذي يحيط به من الجهات الأربع ؛ جدران من الفلّين، لقد رأى الرحابة خلف الجدران، واكتشف أن رحابة الإنسان أعظم من حوائط الفلّين والإسمنت والألمنيوم.

(الألمنيوم !..

لم يكن «زاهر المعلول» يعلم أن ذلك المعدن الرافض للتأكسد، والذي يبدو هشّاً خفيفاً، يكمن في تراكيب البدن البشري، إلاّ حين تعب الأطباء في تفسير حالة الهذيان التي استعمرت ذهنه ولسانه ورعشة أعصابه.

لم يتخلّف يوماً عن الحضور في موعد الديلزة.. ثلاثة أيام في الأسبوع ؛ يلعب به الدوار فيُدير رأسه جانباً.. ويتقيأ، يتقيأ أي شيء.. أغشية

البطن المجلفنة باللعاب؛ الهواء.. التصوّرات القد يمة منذ طفولة القرية.. المسام ومنابت الشعر، الأظافر المنقوشة كالأهلّة بأطراف الأصابع، حوار العينين المالحة.. لا شيء يبقى في الجسم. لم يخف عليه أمر «الديلزة» الموكلة حتى بامتصاص العظام، ولم يكن صعباً أن يتفهّم هذا الشأن.. غير أن الصعوبة تبدأ من حافة اللحظة التي تُسيطر فيها آلام مقدمة الرأس. يا إله الموجوعين..

ودّ لو يلقى في الجحيم ليذوب كالهلام، أو يوضع في مفرمة حادة القواطع، خير من المخافة المبهمة التي لا يعلم لها تفسيراً).

كان الأطباء قد اختلفوا في أمر الهذيان وثقل اللسان، رأى البعض أن يُحال إلى «الأشعة المقطعية» فالسبب لا شك في الدماغ، ومن يدري فربما كان ورماً. لم تُظهر الأشعة أمراً مخيفاً، ولم تبن اختبارات الدم خللاً.. لا في السكر ولا الحديد أو الكلس، لقد أبانت أن الألمنيوم يطفح بزيادة في الدم... تدور دورته فيسبح في الدماغ ويعبث في مراكز النطق و ممكنات الكلام والذاكرة.

سأله الطبيب:

- هل تستطيع قراءة الفاتحة ؟

-.. «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين»..

- ممتاز.. خلاص؛ توقّف.

ضحك «زاهر المعلول».. قُل آه.. أوه !، لم يكن ذهنه غائباً فلماذا يمتحنه هذا الامتحان الابتدائي ؛ وهو قبل قليل يصف له ما يحس به أثناء «الديلزة» وقبلها وبعدها.

ثم أدخل في جدول علاجي جديد، امتدّ ستة أشهر، مع تنفيذ جدول الغسيل الدموي والحمية والدواء.

الألمونيوم.. معلومة حديثة تدخل معرفته المرضية... بقي يؤطّر علاقته النفسية بهذا المعدن القصديري الخفيف، والذي يصنعون منه إطارات الأبواب والنوافذ، و يتصوّر أن ذرّاته منثورة على امتداد عروق البدن.

** ** **

فرك الليل عباءته المظلمة... كانت ستارة النافذة تنفرج ككُمّين متهدلين على جانبي الزجاج البارد، وكان جانب مبنى المستشفى العالي يختفي؛ إلا نافذة وحيدة.. لعلّها في الدور الرابع كما يظن؛ مع أنه قد تأكّد في غروب الأيام من الدور الذي تتعلّق في منتصفه.. لقد كانت الوحيدة التي تدل على أن الليل يلملم كل شيء في الخارج، كل شيء يغيب ؛ حتى رموش النخلة القريبة من إطلالة النافذة، تنفذ عينه باتجاه ما خلف زجاجها، أما في داخل المبنى الكبير والذي لا يستوعبه ذهن المريض.. فإن الحركة الدائمة لا تعني بسواد الوقت أو بياضه. الأطقم العاملة تقيس وقتها بدوران الساعة.. فوج يسلّم وآخر يستلم.

لا يدري صاحبنا، لماذا بدأ يحسّ أن الوقت يدقّ مساميره الدقيقة في عينيه.. الوقت كبير كجبل يقف قرب أنف المنتظر ويسد الأفق، هكذا رأى، وأن الإصبع الذي لا مكان لمقارنته بجبل كبير.. يغدو كبيراً حين يُقرّب من حدقة العين.

تعلّم «زاهر» كيف يُبعد إصبعه، فلا يقترب من عدسة العين، لا لأنه سيحجب النظر عن كل شيء فقط.. بل لأنه سيغدو كبيراً في

حجمه، أكبر من النافذة والغرفة، والجبل، وأكبر حتى من ضوء عين الشمس.

و..

(تساءل مراراً:

حتى ولو أن الأمر الذي يصبح فيه الإصبع أكثر من كل شيء، يدفع بمسرّته نحو الجمال؟

لم يستطع الجواب منذ وقت غير قريب في العمر، حيث أن كثيراً من الأمور المبهجة لا تقع ضمن فكرة الإصبع هذه، إذ سرعان ما تنطمس، وتغدو تحت معيار «قف لا تعطِ الأشياء أكبر من حجمها».

كان تساؤله صالحاً إذا ما داهمت ضلوعه أطياف جميلة،.. لقد عابثت ذهنه صورتها في كل المواقع، وتمنى ألاّ يراها في حال كهذا، فروائح العطور، مهما كانت صلاحيتها متوافقة مع ذائقة المرء.. إلا أنها لا تليق بأن توضع في كوب الماء، ولا أن تكون في أنف محبذها وهو في ظرف الألم.. الألم في حقيقته لا يقبل التآلف مع الأشياء الجميلة في لحظتها، لكنه لا يستطيع أن يقتل بهجتها، حيث يُمكن بفعل سيطرته تأجيل المسرات.

لذا كان من المناسب الآن.. أن يراها... سيحتفظ بكنز شذاها إلى حين مناسب... يريد أن يكون مستعداً لاستقبالها في ذهنه.

إن أركان الغرفة الفلّينيّة التي تحيط بسريره.. تحوي ألواناً من الزهور ببطاقات المحبين.. لكنها لن تمنع عن عينيه سهر الألم في الليل، وكذلك، لو تجمعت أضواء المستشفى فوق رأسه، فإن الزهور لن تقتل الألم، ولا الأضواء، ولا حضور الحبيبة ولا..ولا..

وقع «زاهر» في سرب من المراجعات، كان آخرها يقول:

و. . ما الألم إذن ؟!.

يمكن إسكات فعائله المستفزّة في خلايا البدن بالدواء أحياناً، وهز يمته ممكنة دون بطولات، فمبتكرات العقار تخمد نغزاته وسيطرته، لحين أو لبعضه، وليس على المريض أن ينشغل بما وراء ذلك، فهو في آنية لا تقبل التفاوض والمراهنات، أما بهجة الزهور والأطياف الجميلة. . فلا يمكن للألم أن يغتالها، إذ أنه بقبحه وغطرسته. . يحتاج إلى مساحة يُزاول فيها فعلته الموجعة، ثم يهدأ أو يغيب، مُخلّفاً في النفس مقداراً رحباً من اليقظة بالجمال، كأنما احتاجت الأرض وفتحت ذراعيها للترحيب بالمطر، ولولا قحط الجفاف، لما فرحت به.

لقد رأى «زاهر» أن للشقاء في الحياة، نصيب الماء من اليابسة في خارطة الأرض، مهما كانت أنواعه وتصانيف وطأته على المرء، غير أن الإنسان يسعى جرياً وراء القبض على سعادة مكررة. . دون أن يدرك أنه سيفقد قيمتها بفقدان تحقيقها ويذهب نحو المطاردة من جديد لبلوغ ما هو أعظم منها، ولن يقف إذا عجز أو انقطع عنه النفس.

ودّ لو يُعلن حبّه لكل الناس. . حباً أميناً صافياً ومجانياً. . لا يريد مقابله جزاءً ولا شكوراً.

** ** **

النافذة لا تزال منفرجة الستار، والضوء البخيل الأصفر. . ينفذ متراخياً من نافذة الدور الرابع، ومحتويات الغرفة منطفئة في جمودها، والهاتف منذ ساعات الظهر لم يقرع جرسه الأمريكي.

كل شيء ساكن داخل هذا الصندوق، حتى إنه ليكاد يسمع

قطرات الدواء المعلّق عن يساره، و هي تدمع قطرة تتبعها قطرة..
مع دقّات قلبه.

لمّ جسده كقبضة وسط بياض السرير، وجذب الغطاء المشدود فلامس الجرح... أحسّ بغيوم ثقيلة على صدره.. وضع كفه فوق ضلوعه ثم.. بكى، خجل من نفسه، وداري مداراة من يحدس أن يدخل عليه أحد، و كان يرغب في أن يستمطر جميع غيوم صدره.. لا يدري من أين ساقتها الرياح، لقد أضحت الأشياء صافية نقيّة كأنما غسلها المطر قبل خروج الشمس من وراء حجاب.

يعلم «زاهر» أنه لم يبك لأنه مريض تتلبّسه أحوال الألم والسهر وتمدّد الزمن، و لم يُفكّر في ذات وقت أنه مريض، ولم يأت على شوارد خاطره ذلك، لقد كان بعيداً عمّا يعتقده الغير، و ليس في غياب عن واقع حالته وتفاصيل تعامله الصحي معها في مختلف ظروف الحياة (فكم من المرضى ممن وقعت بهم فقدانيّة التوازن الصحي، ككائنات إنسانية سُرقت منها دون اختيار، شرعيّة العافية).

هكذا كان يرى، لقد كان على الدوام يكره الندب، ولم يفكر أن يكون ماء العين أو القلب على الذات العليلة بالداء، العزاء البليد..
لكنه إنسان.

الفصل الثاني

لماذا تأخذ الوجوه في ذاكرة المريض بعد صراعه المباغت له مع حالته، شكلاً أليفاً ؟

سؤال كان يطارح «زاهر» طويلاً، وفي امتداد شبه مستمر، ويهجم عليه أحياناً على هيئة حميميّة عندما ينقطع مع ذاته وهو يستريح من الانصراف إلى مقارعة الألم.

لقد عرف تماماً أن المرض ليس قبيحاً إلى الحدّ الذي يصفه الناس بالوحش المخيف، أو أنه ذاك الذي لا يمكن قبوله، أو توقّعه، أو حتى التفكير في أنه محتمل بصورة أو بأخرى، وأن من النعمة على الإنسان.. البعيد عنه، والقادر على وصد أبواب التفكير فيه، أنه حين يضع يده منفرجة الأصابع على موقع القلب تحت الضلوع.. لا يُحس بشيء مما يدعونه باختلاف النبض، أو الوجع ولو كان وهماً.. توجساً، وسرحاناً، ثم طرد الوهم بأي منفذ للتفكير في موضع اهتمام مهما كان.

ثم التهيؤ بدافع أنه ليس مريضاً، ولن يمرض، ولن يقع في موقع فلان الصديق، أو فلانة القريبة..فلماذا إذن التفكير في هذا السبيل القبيح، إنه هو الذي لا يمكن أن يتصوّر نفسه طريحاً منشغلاً بكامل وعيه وجوارحه من أجل العلاج لطرد المرض !

الحقيقة أن «زاهر» عرف وبتأكيد المجرّب.. أن الناس الأكثر تخوّفاً من المرض، هم أولئك الذين يرمون أنفسهم مُسبقاً وباستعداد طريٍّ للشفقة، ولاستجداء رعاية وعطف الناس، كل الناس، لأنهم

في نظره مطالبون بسكب عيونهم الشبه ضامرة، إليه وكأنما يجلبون على حالته العطف وواجب الرحمة والمساعدة، فهو مريض.. إذاً فهو عاجز وفقير، وذليل وناقص، وجدير بالعاطفة، العاطفة التي تأخذ ما معناه:

«مسكين، مريض».

عرف «زاهر» في إطار محيطه الاجتماعي.. أن الناس لا يزيدون بزياراتهم، أو سؤالهم بعضاً مع بعض عن المريض.. لا يزيدونه إلا خوفاً وتوجّساً من خطر حائق فتاك - مهما كان بسيطاً-، لذلك فالمريض الجدير بالشفقة، يتنامى في ذهنيّته عبر نظرة الآخرين له، وقع المرض.. المصيبة الكبرى التي أصابته بعيداً عن عافيتهم وصحّة مواقعهم التي دفعتهم للرأفة والإشفاق !

إنهم يدعمون المريض بوافر من الاستعداد للموت والتهيؤ للضعف والاستسلام، وعليه أن يوجّه انتباهه إلى ما يرون ويعتقدون.. فهو مريض، وهم الصائبون لأنهم معافون، وهو لن يكون أعرف منهم بذاته، وهذا مفهوم بائس.

تأخذ وجوه عديدة في ذاكرة المريض، أُلفة ومحبّة لم يكن لها ذات الإحساس من قبل !

رأى أن السبب لا يتمحور في جواب واحد في كل الحالات للمريض تحديداً، وإنما يختلف باختلاف النفسية و حجم تلمس الأشياء.. عنده هو، كان يعني الحاجة إلى ضمهم تحت لحاف المحبة الطاغية في قلبه، وتسديد إحساسه لهم بأنه يحبّهم، ولو كانت بعض تلك الوجوه قد مرّت بحياته مرور الصدفة السريعة.. كأن يكون قد ركب في سيارة أجرة، فوجد في سائقها شيئاً من احترام الذات،

أو عدم اللباقة التسويقية المتكلّفة، أو التهذيب بعدم فرض آخر غزوات الغناء الاستهلاكي في جهاز التسجيل، وعلى أي حال.. فالوجوه كثيرة، والنصيب لحظتها لمن يتوارد في الذاكرة، غير أن صفة التعامل أو المواقف التي كان لها في الذهن الآن حضور.. يحتاج إلى أن يُبلّغها مودّته التي ستكون على هيئة كلام عرفان، أو إشعارها بأهميّتها لديه، أو أنها قد تكون حالة احتياج ما تشعره بأنه ليس وحيداً، وأنه سيكون قوياً وجديراً في ذاته بالمشاركة الطبيعية الفعّالة المعافاة من فقر الاستجداء العاطفي، كما ينظر التقليديون الخائفون وقت زيارتهم للمريض.. إنه يكره هذا النمط الضعيف الذي يدخل على المريض ليسرد في مسامعه كلمات العطف والدعاء المكرّر، مئات المرّات بذات الكلمات من كل لسان.

.. إن استحضار تفاصيل العلاقة بالوجوه الواردة دون إذن، أو مقدمات بذاكرة المريض في حالة ما بعد تجاوز الخطر - حتى ولو كان لا يعلم خطورته -، وحيث تبقى أجهزة البدن تُزاول وظائفها، وتلك التي تتعلق بتغذية الرأس بالتحديد.. فإن ذاكرته تزاول نشاطها وتسمح لها بالاسترجاع، وترتيب الصور..و عندها يكون «زاهر».. قد قال لذاكرته ؛ قفي قليلاً.. هنا عند حدود هذا الوجه،. وكان بالضبط يصنع بصماته على كل فقرة في سلسلته الفقرية، التي تجاري عصب النخاع.. ما الذي أورد هذا الوجه الآن؟.. تدرُّج تنازلي، أمر أعقب أمراً، وتقف سفرة التدرّج بصفاء عند أول البدء: هناك اختار الوجه لألفة ما في موقف عابر.. في لحظة لها مناسبة أو ليس لها.. حدثت وانقضت، ولم يحدث أن نبشت عنها لحظة استذكار واحدة، الآن.. كل الوجوه لها ألفة في داخل المريض تحتاج إلى ما ألفه الناس..

إنها الغربة.. الغربة العميقة الموحشة، التي تتهندس في نظام مُقنّن، كأنما صُممت بدقّة لتنقر فراغ الاستذكار الدخاني المحتشد كعفر الفحم المطحون، فيجعل الوحيد، لا يفكّر في خواء البطن، وفواصل الوجع العبث.. بل وقبلاً: الحاجة إلى ألفة الناس.

.. «زاهر» يجذب اللحاف الأبيض على السرير، ويلملم أطرافه الناقصة؛ كقبضة النحيل، يكاد لو يتوهّم أن الناس جميعاً؛ وبتساو يعومون بودّ ودفء حوله تحت لحافه. أليس ممتعاً أن يجتمعوا كورق شجرة لوز مثمرة، جذورها تتشرّب من ماء واحد.. مطر واحد، من غيمة واحدة تكاثفت عبر مراحل، وجاءت من سفر بعيد، كنّستها رياحات متعاقبة، و.. جرت.. جرت حتى استقرّت في مقر معلوم، فوق أرض معلومة، فتهل الغيمة قطرها.. يغدو في حوض اللوزة واحداً، قشرة طرية تعبث بهدأتها هبّة ريح مشعثة، أو لا تهب.. ويبقى قطر الغيمة ينز عقباً نحو الجذور، غذاؤها وشرابها، وشمسها وقمرها و رياحاتها واحدة.. وحين تأتي أكلها، يبعث الباعث يداً تقطف اللوز أخضر.. أو أصفر.. «فاقش» ناضج، كل مرحلة يتكوّن فيها الثمر بعد الإزهار والحنّون.. يعطي لوناً وطعماً وحجماً ورائحة.. كلها في غير نضج، ولكن من يجيد لغة البشر يتخاطب بها مع فراغ البطون، لكل مرحلة قبل النضوج عيون تلتهم قبل البطون... وبطون فارغة قبل العقول، والذقون والألسنة والآذان، يدب السوس والوساوس والخنائس من الحشرات والناس، يدب من أوهن مكان في الجذع، أو من «أعسله».. ثم يجر لعابه قاصداً الثمر، أو يحيق بخضرة الورق، بعضاً من ناضجات ثمر اللوز.. تبقى قويّة جامدة الغطاء، لا تُفقّعه غير الصلب من الحجارة، أو الحديد.. إنه ثمر مُعافى.

توقف تحت دفء اللحاف، وكان لا يزال يُفتش في الوجوه عن ألفة ترتُق وحشته... يتداعى «ويفلّي» فقرات ذاكرته في حالته الغريبة تلك.. في سريره.. في غرفته بنافذتها المستطيلة العمودية الجامدة تلك، وربما كان دفء اللحاف قد أورد في أطرافه الباردة انتشاءً مبهماً فاختار قلبه حميم الحجر والطين ونفح الأرض وقتما تتأهب بعد شوي الشمس للقطر، ويكون لاختلاط حبات المطر بالتراب رائحة، يعرفها هو.. يتنشّقها كما يتنشّق الطفل جفاف الحليب على ثدي أمه.

قريته التي نقض الاستهلاك الجديد صوف غنمها من مغزل أمه، و أيبس الحقول والأشجار وجلود البقر والحمير، وغدا الفلاّح غير فالح، والجمّال بلا جمل، وتجردت الجبال من أسمائها وولاء وقايتها للرعود المخيفة وحماية الملتجئ.

** ** **

(كانت الطفلة التي تبكي بصوت متقطّع مخشّب.. تفتح عينيها الكبيرتين ،لتصبح أكبر من جسدها.. ومن أمها المغطاة بالسواد كجذع شجرة قديم، وكانت يداها تتحركان وكأنما تريدان أن تقولا شيئاً كثيراً.. لقد كان الوقت أوسع من حجم بياض السرير، ومن الغرفة الرمادية، ومن الباب الذي الكأته قطعة خشبية مدعوكة في حجم الإبهام لكي لا ينقض– أتوماتيكياً – بقوة.. لم يكن ليسمح للوقت البطيء بالنفاذ.

على ملف البيانات المعلق جانباً.. إيضاح:

الاسم: مستورة......

العمر: ١٤ عاماً.

تشخيص المرض: حروف متشابكة معقوفة بالإنجليزية.

تاريخ الدخول: (منذ ثلاثة أسابيع).

طريقة الدخول: الطوارئ.

توقيع ولي الأمر: والدتها، (بصمة الإبهام الأيسر).

مكان السكن والعنوان: منطقة الجنوب، قرية القمحة.

هاتف/ بلا. رقم المنزل أو الحارة / بلا.

البلاغ في حالة الخطر أو الوفاة: والدتها.

إلى جانب والدتها في حالة الإبلاغ ويخط عربي سريع «جمعة».

كانت الصبية التي تُشبه طفلة في الثامنة تبكي بكاء المستغيث الخائف، وكانت تسيح من عينيها مياه مُنزلقة داخل فمها المعصور.

الممرضة اندفعت من الباب، بيديها قربة شفافة، وخراطيم طويلة.

لم تتكلّم، وقفت إلى العمود الألمنيومي ذي المشاجب، وعالجت بأتوماتيكية تمديد الخراطيم إلى الذراع الصغيرة، لم ينقطع بكاء الطفلة، ولم تنظر إلى الإبرة الكبيرة التي غرزتها الممرضة داخل العرق.

الأم، انحنت كالراكعة فوق صدر ابنتها، أشارت الممرضة إليها برأسها أن تبعد قليلاً.. وفهمت.

كان مُضخّم الصوت يصب كل جهده من السقف فوقها، وحيث أن الغرفة الداخلية بلا نافذة.. فإن الضوء الكهربائي، والذي يُشبه بياض

الثلج، لا يمنح فرصة للتفريق بين الليل والنهار، كانت الأم المغمورة بالسواد تتذكّر أن آخر فرض صلاة أدّته.. وقع ما بين نعستين غلبتهما قبل زمن ثقيل من الآن، لم تستطع أن تحصل على جواب من الممرضة الهندية التي احتارت في معرفة سؤالها، وقطعت «جمعة» وقتاً أشغلت فيه يديها بثرثرة طويلة من الحركة، غير أن الممرضة السمراء استمرت تهزّ رأسها كالمتسائلة، البعيد عما ترغب سائلتها في معرفته، رغم أن وقت الآذان قد أعلن من السقف قُبيل قليل!

و.. سألت الله بدعاء، أن يغفر قصورها في عدم معرفة وقت الصلاة، و أردفت بدعاء أن يعتق الله فيه هذه الطفلة الصبيّة التي عضّ المرض أول شبابها:

«مظلومة؛ يا رب

إيش ذنبها!».

تباطأ الصراخ الذي كان ينفر قاسياً من فم الطفلة، ثم خفت فانقطع، كانت القربة الشفافة تدمع دون انقطاع في الخرطوم الطويل، و العينان الكبيرتان مفتوحتان بكامل وسعها، و الفم الضامر كقشر ليمونة معصورة ساكن كفم قربة ملموم.

الممر الطويل يضيق في امتداد بصر الأم، الصمت واسع.. أوسع من باب الغرفة الرمادية.. هدوء يرتفع فيه طنين الأذن:

(الحمد لله.. ليتها تنام وتستريح، يا رب..).

ليال بطول الحرقة في العيون؛ لم تنمها.. ولم تنم الأم إلا إذا كان قلب أم ساهرة مع طفلها ينام.

وقت يحسب الغافي المجهد أن النوم غافله؛ فاسترق وقته.. ودخلت

الممرضة، علّقت بصرها في القربة الشفافة.. قطرها ثابت أيضاً، عدلته فما تحرّك، اجتردت من على رقبتها خرطوم سمّاعة النبض.. هنا.. هنا.. على الصدر، عينا الطفلة عن آخرهما مُبحلقتان، أهملت من أذنيها السماعة، ومرقت من الباب إلى الممر الطويل الساكن، بعد وقت عدّت فيه الأم أصابع يديها مرّتين، كان الطبيب يقف معقوفاً نحو صدر الطفلة المكشوف، أخرج من جيبه ما يُشبه المقلمة المطويّة، وحكّ بها في بطن قدميها، ثم.. غطّى كل جسدها وعينيها المفتوحتين ككرتي زجاج. كتب شيئاً في الملف المعلّق، حيث فرده على كفّه، و..أعطى قرع خطواته نحو الممر.)

أي وجه احتاج «زاهر» أن يضمّه داخل لحاف ألفته في هذا الوقت الفاتر، ولماذا لا يتعاطف مع مرارة حالته الآن، وهو يتجّمع في السرير كقبضة بطرف ناقص!

لماذا يتألم للآخرين ويعطف عليهم بكامل أسى الشفقة.. ويرفض أن تمنح له بأية صفة من الآخرين!

لماذا يتحفّز كصدر العانس، ليحتضن آلام كل مرضى العالم، وينهدم أحياناً كمحصول القمح مع أنّاتهم وهو ساهر دون ألم ودون نوم!

ترى كم هو حجم الحماقة التي يتسلّى بها دافع الأوجاع في أبدان المساكين!

و..

كانت مفصّلات باب غرفته تتعضّد في مسامعه؛ فتفصل بينه وبين استجرار الوجوه الأليفة في خاطره.

دخل عامل النظافة الأسمر ابتسم في وجهه قائلاً بالعربية:

«إن شاء الله.. أحسن»

ردّ «زاهر» كالمرحّب، وقد أزال اللحاف إلى منتصفه:

«شكراً.. أحسن»

كان يودّ لو يفتح معه حديثاً.. أي حديث يحمل بعض المواساة والألفة، لكن العامل وهو ينحني للقبض على كيس المهملات.. علّق متعجباً، أو ساخراً:

«أبشرك ؛ بكره..بكره.. تصوّر».

-«كل سنة وأنت طيب»

- «وأنت..بصحة وسلامة».

رأسه من الناصية إلى ما بعد الوسط..أقل سُمرة، أنفه بارز لا يكف عن الاستنشاق المسموع، كأن بداخله زكام مزمن(كم يبلغ عمر هذا العامل، وكيف غدا مغموساً داكناً داخل بدلة العمل الزرقاء..لا عليك ؛ أنت محتاج لإنشاء ألفة ولو مع عمود كهربائي في منحنى شارع..)

سبق وأن تحادثا قليلاً في مثل هذا الوقت في أيام مضت.. يدخل قبل الوجبة بدقائق، الوجبة يحملها زملاء له بذات الملابس. وجبات المرضى مهما اختلفت أصنافها إلا أنها شهية وتبثّ روائح طيبة..(هل يضع العامل عينيه دون تردد على هذا الصحن الدائري الموزع بأنواع الطعام المقننة..، كم عدد المرات التي يقمع فيها رغبته كي لا تمتد يده إلى ثمرة فاكهة أو قطعة لحم مشوية..ربما بعدد الأطباق..بعدد المرضى..بعدد ساعات المجاعة

الهائمة في بطون منتظري معونات البلاد الصناعية.. حين تقدمها مشفوعة بالثناء والدعاء والأكف الممدودة و الأزلام المجوّفة الفارغة..تصحّر.. احتباس نزول الأمطار في القارة السوداء، امنحوهم أقل من الدعاية بثلاثة أرباع حجم الصورة الإخبارية.. فقراء جوعى مرضى، بطونهم كبيرة وأطرافهم نحيلة كأعواد الثقاب، لا يصلحون للعمل.. لا يقدرون على الزراعة والحصاد، انظروا.. دائماً يتألمون ويجرجرون أمراضهم كالنسل، أمهات حوامل ويحملن أطفالهن الرضّع في لفافات صدئة معقودة على الجبين.. فقراء مرضى ويتناسلون... يا للحماقة!

انثروا فوقهم أعلاف البقر الهولندي «نيدو» سريع الذوبان..يجعل رضّعهم «يكبرو.. يكبرو»، القشدة ذات التاج الذهبي، تقلب لون جلودهم بيضاء بشعر طريّ لامع يتخصّل فوق جباههم.. «دلّل نفسك مع زبدة البقرة التي يركبها مالك الأبقار كأعزّ معشوقة في سيارة رولز رويس»، الله.. الله، هللو.. يا، مصنع السكر في السودان لا ينتج، العمّال ربما تضامنوا مع عمّال السكة الحديد.. أغبياء، وحتى مصانع السكر في كوبا ؛مغفلون، ليس بالسكر وحده يحيا الإنسان، ولا بالقصب والكاكاو والذرة والهريسة.. تخلّف، انظروا ألا يستحقون الشفقة والعطف.. أغيثوهم يا أهل النخوة.. أعينوهم بالغذاء يا أهل الياقات البيضاء، إنكم ترتكبون الحماقات.. ألا تفطنون؟...(٩٠٪) تكسبون به الرأي والدعاية والإعلام: إنسانيون كرماء أنتم كالتاريخ.. كالمساحات التي تبثون عليها سماء المواشي لألعاب القولف والكرات المطاطية وركض الخيول.. أنقياء بعدد ألوان ومركّبات العطور.

لا أظنّكم راضون عن حمّى الملاريا، تُهشّم دماء الأفارقة، ولستم بملومين لو علمتموهم طرد الذباب وتناول الطعام بالشوكة والسكين، فليذهب اللائمون إلى الجحيم.. أطفال الشعوب النامية.. ينمون

في الغد برعايتنا، في حضانة أكفنا.. يا لهذه القبائل الفقيرة من حمقى..يؤثرون العناد والمعاداة والتخلّف، كأننا لم نكن ملائكة نحنّ على جذوع الأبنوس المحترق !)

كان «زاهر» يمتد بخاطره كخط الاستواء، وداهم خلاياه نوع من التوجّس حين انهمك عامل النظافة الأسمر في تدليك بلاط دورة المياه بسائل يُشبه لزوجة العسل.. قليلاً قليلاً ثم صبّه بعصبية عن آخره داخل الحوض، و أوفر عليه الماء، التفت إلى «زاهر» الذي أدار رأسه ؛ وقال:

«أنت مريض على السرير لازم تتغذى».

لم يعلّق، أضاف العامل وهو ينزع قفّازات التنظيف من يديه:

«ما لازم تستنى؛ الأكل يبرد».

تساءل مع نفسه على مضض مؤجّل، إن كان هذا الأصلع تابعاً لإدارة ما !.. لكنه ردع ظنونه بأن الشك مطلب يريح الإداريين وهذه غايتهم، وماذا يريدون من مريض أسروه بالعناية في مستشفى العناية الخاصة.. دخل برغبته مختاراً غير مدفوع لتبتر رجله، وتقلم ساعاته بالخواطر والتداعيات، كل ما فيه فاشل، الكلى والعيون، والأوعية الدموية والحركية والتنقلية، لو مسّه جنون الرياح لتهشّم.. دجاج الماء يقف بساق نحيلة مثل قصبة الحشيش، يقف طويلاً يلتقط مرآة الغدير الصافية.. حتى تتعب ساقه فيبدلها بالأخرى..لا تنثني، يدهك بها الحصى فلا يُحس، ويلقمها للنار والثلج فلا تهتز.. ربما لأن هذا الطائر المائي يحلّق من غير توازن.

** ** **

كان «زاهر» في كل مرّة يسأل فيها الطبيب عن موعد خروجه من المستشفى ؛ يُجيبه ب«قريب إن شاء الله.. بكره»، حتى إذا ما جاء بكرة لم يحدث !.

وكان الطبيب الذي يصغره سناً، قد تخرّج من ذات المدرسة التي قضى فيها «زاهر» مرحلة ما بعد الابتدائية، لكنه لم يكن زميلاً لفارق السن، وذكر الطبيب في سابق وقت، أنه دخل الإعدادية وبها من المشرفين والأساتذة فلان وفلان،(لا بأس.. وليت ذاك الجامع لم يجمع).

نظر في «طبلية المريض» كما يسميها.. دلق من وراء نظارته جحوظ عينيه السوداوين.. قرأ بغير فمه ولسانه، وناول الملف للممرضة الطويلة الشقراء، وكانت تقف كعصا مطرقة ثخينة... لم ينظر في وجهها.. قال لمريضه:

«زاهر».. أعطوك علاجاً مضاداً البارحة»؟.

«زاهر» ؛ لا يدري أي مضاد، وهل هو من النوع الذي يُحقن في الوريد أو الحلق، أو يبلع بالماء !(لماذا لا يسأل المرضة أو أوراق الملف الأخيرة !).

- «لا أعرف؛ يا دكتور».

- «يا الله.. كلهم نصارى».

وكان يقولها وكأنما يتسلل اليأس من بين شعيرات ذقنه الطويلة.

تحدّث مع الممرضة المقتبضة دون أن ينظر في وجهها، و.. خرج دون كلمة...و كان بنطلونه القلعي الأزرق، قد أحاط بساقيه كأنبوبين واسعين، لا يبدّ له.. قصير لا استقامة ولا وفرة فيه، منذ

عرفه «زاهر» ثم رآه في مراجعات قادمة، لم يتغّير، أو يستقيم تحت مبسطة المكوى (ربما لانه من صنع النصارى، والمكوى مستورد من بلاد النصارى).

خرج من باب الغرفة العريض، وكأنما قد خلّف وراءه أثاثاً جامداً، ظن المريض أن طبيبه قد وضع دون حجاب المساءلة أو الحالة والتوقع، أو أي مانع آخر لا يعرفه (ربما لأنه لم يطبّق نصيحته الإضافية خارج دراسته الطبية، حين دلّه على استخدام العسل والسدر لأنهما مباركان، وصالحان لعلاج جروحات السكر).

لكن زاهر لا يتبارك بالوصفات الشعبية.

(في القرية.. قال الذين عرفوا فطنته ومسالمته، وقت إذ نزل المرض الغريب ب العطش الدائم والتبول.. قالوا، إن زاهراً ولد طيّب، لا يستاهل العلّة، لم يتخلّف سنة في دراسته، ولا عصى أمراً لأهله في البيت، مثلٌ يُضرب به في الأخلاق والشطارة.. خذوه إلى الفقيه، لقد أصابته عين، أصابته عصراً فبات وأصبح محموماً.

شدّ جدّه على الحمارة «حلسها» وفوقه هيأ مركباً طيباً، وأردف خلفه زاهر... الطريق كله كان بين الصخور والجبال، مواقع القوائم.. تقرع في حصى الطريق، ينزلق من خلف جده إلى الوراء مرات، فيترجّل على قدميه الجد، ويبقى الصبي على ظهرها، بلغوا بيوتاً قليلة بعيدة على رأس جبل لم يعهد مثله في العلوّ، وأنزله في ساحة الدار المفتوحة، وحمير مُتفرّقة، مربوطة إلى جانب بيت الفقيه بأوتاد، ليس حولها أحد.

الدار الواسعة يجلس على بساطها رجال ونساء وأطفال، ينتظرون دورهم لمقابلة الفقيه.

قال الفقيه للجد وهو يضع يده السمينة فوق رأس زاهر: اتركه عندي وانتظر إلى أن يجيئك ندائي من المقصورة... كان الصبي الفطن يقرأ كل فتافيت المقصورة، قوارير ملونة وقطع قماش أبيض صغيرة مبللة بالسمن، وعلب يساوي حجم الواحد حُقاً له غطاء من جنسه، طاسة كبيرة مكشوفة بها خليط كالحنّاء أخضر متماسك، ودوائر منسوجة من سعف ليّن، أوراقاً قليلة مطويّة، وأخرى مفتوحة مصفرّة، وفي الركن كرسياً قصيراً من الخشب حوله حبل مهمل، وخلف مجلس الفقيه سلسلة معلّقة.

الفقيه بطيء.. يمد يده المدهونة بسمن رائحته تصنّ في الأنف.. يلتقط حقاً ويدس في بطنه بعض الخليط، ثم يصب عليه من قربة السمن الصغيرة سمناً على منتصفه، ويسوطه بسبابته مُهمهماً مُتطلّعاً إلى زاهر الذي غدا كله عينين لا قطتين، اقترب..اقترب رافعا الهمهمة، وفي غير انتباه بصق برذاذ دافئ في وجهه ومقدّمة رأسه.

لم يتحمّل الصبي..يعلم أن البصق في الوجه عيب لا يعني إلا المهانة والاحتقار، وبلا تردّد نسي أن للكبير على الصغير الطاعة والإذعان وصمت الاحترام.. قذف ببصقة لم يتعمّدها في لحية الفقيه البيضاء، ثم أحسّ برعشة الجاهل الخائف في طفولته، حين يتعرّض لأمر يصعب عليه فهمه، ولا يدري كيف يُداريه سوى أن تجمُد عيناه ويدخل الملح مع لعابه تحت اللسان، أو ما يُشبه الدم!

رفع الفقيه صوته مهمهماً هذه المرة وعيناه تنصبّان على الصبي... جمع ذراعيه وقدّمهما على مهل، ثم جمع بينهما في قوة الرجل الصحيح الغليظ على الصدغين والأذنين.. زعق زاهر وفرد قدميه المتشنّجتين.

عندما فتح الفقيه باب مقصورته إلى وسع الصالة الممتلئة بالمنتظرين من المرضى ومرافقيهم، وجدهم يرفعون أعناقهم ويغرزون أبصارهم شاخصة إليه.. يقولون، أخرج من جسمه الجنّي.. أخرجه.. أخرجه، الحمد لله؛ صاح وتنكّر وشاكس، لكنه لم يقدر على الفقيه.. تداخلت أصواتهم الخافتة، قال جد زاهر في نفسه مثلما قالوا وفرح لأنها لم تكن عين حاسد فقط، وإنما جنٌّ دخلوا بدنه فسكنوه.. خرج الجنيّ.. الحمد لله.

قال الفقيه للجد على انفراد مؤكداً بقليل الكلام.. إن زاهراً مسكون بجنيّة خبيثة، وأنه نادراً ما رأى مثلها.. ناوله «الوصف» في حُق مقفل سعوط، ومنه ما يوضع تحت اللسان، وما يُمسح به الرأس والرقبة.

توهّم الصبي المريض أن بداخله جُنيّة «متخبّثة» أو بها ناقص، لكنه يعرف أنه بالخطأ الانفعالي، رد على البصقة بمثلها، وأن زعقته كانت من هول الضربة التي جاءت من كفيّ الفقيه السمينتين الثقيلتين، لكنه احتكم للوصف كما شرحه الفقيه، ولمّا ساحت رائحة السمن والسدر من رأسه ورقبته.. عاف عنه يوماً، وجاء في وقت جائع فلحسه عن آخره.

جاهد الجد والأهل طويلاً في إقناع زاهر بالعودة إلى طبيبه الفقيه بعد نفاذ الدواء المركّب، فنفر وأبى ورفض، ولم يجد حجّة يقنعهم بها سوى أنه أصبح يقضي الوقت معهم دون حركة أو كلام.

قالوا، ما عهدنا الجن يخرجون من المضطر بعد أول ذهاب إلى الفقيه.

زاهر كان يخاف لو يأمرهم الفقيه بحجزه مربوطاً بالسلاسل أو

الحبال. بقيت العُقدة، وبقي المرض الذي كشفه طبيب بالمدينة بعد تحليل البول والدم.

بعد عودته إلى البيت بالقرية، لم يجدوا من لديه معرفة لحقن الإبر، فكانوا يأخذونه على ظهر الحمارة إلى موقع سوق القرى، حيث الطبيب الذي يأكل ويشرب ويتنفّس من ريالات الفلاحين والفلاّحات.. بعد جمع البيض وصرم البرسيم والغزل والريحان، وبيعه في السوق الجامع، فإن لم تقع في يد الفقيه، فهي لا ريب لن تحيد عن جيب الطبيب).

** ** **

في الصباحات الجميلة. تلك التي تنبعث من نسيج الخلايا، ومن ألياف الأعصاب الدقيقة كالشعر الأبيض المذهب، ومن البياض المعلّق فوق السرير، والقطن والشاش، والضماد،ومن الزهور البيضاء، وابتسامات الأطباء والممرضات وملابسهم، ومن أسنان العاملين وأظافرهم.. الصباحات التي ترى فيها أرض الغرفة وسقفها وجدرانها، وحبال الستائر، وصوت جرس الاستدعاء، وخراطيم السماعات في رقاب حامليها، وراقصات الباليه في الموسيقى المتقنة كغابات الثلج، وأنابيب البلاستيك البيضاء الشفافة التي تورد إلى العروق في الجسم الآدمي؛ محاليلها..

الصباحات التي لا تحتاج لأن يكون فيها المريض شاعراً؛ بل مشرقاً دون بحث لمعرفة الأسباب، فالأسباب دائماً تتطلب العوم في جواهر الأشياء، وهذا كفيل بإبادة جمالها.. لحظات الجمال والمسرّة؛ عندما تقع تحت الفحص الذهني والدخول في عمق الفتافيت..(لماذا وكيف وإلى أين) تفسد طبيعة الإحساس بها، وأحياناً تقطع نصيباً وافراً من المتعة بها.

يرى «زاهر» أن الأطباء والمحللين النفسيين، هم أكثر البشر في الغالب استمتاعاً وتأثراً بسكينة الصحة والاستقرار، فهم دائماً يقيسون الأمور بتأثير المركّب الدوائي... «الحجم، دواعي الاستعمال، التأثيرات الجانبية، طريقة التأثير.. بدايتها بعد التناول وقمّة التفاعل؛ أسلوب الانسحاب البطيء ثم النهائي». أطباء العلاج النفسي قد لا يختلفون عن الفقهاء كثيراً في وصفاتهم النفسية للمريض، خاصة إذا ما دققوا في مكونات التركيب الاجتماعي لمريضهم.. إنهم لا يرحبون كثيراً بالمريض الواعي، لأنه عنيد التسليم أحياناً بما يشخصون ويصفون، ولا يدري إن كانوا يكتبون له أدوية من تلك التي تحمل في إطاراتها وعلبها صكوكاً طويلة لشرح الدواء، أو يكتبون أدوية نادرة الحصول، ثم يعود إليهم المريض – وهم يعلمون – فيستبدلون نقصه وندرته بآخر من عياداتهم دون صكوك للشروحات.. ربما كان ذلك مضمّناً في دراساتهم؛ فالعلاج النفسي قائم على التحايل ومحتمل للتوهيم، والنتائج تكون طيبة !.

أما المريض؛ فإنه يغدو راضياً ومصدّقاً.. ربما كان أيضاً موهوماً ثم مُشكّكاً ثم.. مصدّقاً وهذا هو المطلوب إثباته، لذلك فإن مثل هذا يندرج على الطبيب الذي يقع في دور المحرّك الوسيط الواصف بين الدواء – العلاج– ؛ وبين المريض، يبقى خط التواصل الذي يؤكّد الثّقة بين المريض وطبيبه، الثّقة هي الخيط النحاسي الجيد النظيف المكلّف بتوصيل التيّار الفعّال للعلاج.

يذكر «زاهر» وللمرة الأولى في حياته المرضيّة، أنه حين نزل من على ظهر السرير بعد فترة البيات العلاجي لبتر ساقه؛ تعرّض لطقس نفسي مُعتم بالخوف واللامُبالاة، أو ما يصفه النفسيّون مع كثير من تعبيرات التشخيص ب«الكآبة»، فبماذا يصفون مريض النقاهة

الذي تطلّع إلى رصيف المُشاة، أو حتى إلى دورة المياه بمنزله.. فوجد أن رجله وموقع ارتكازه ونقل بدنه مفقود!، وحيث انعتق من بيات شبه تخديري ب «المورفين» الطبي، والعودة إلى طبيعته ؟!، ستكون منطقة النقل هذه شديدة الهضم؛ عزاء الذات منها وإليها.. التأمل الطويل الواعي للحادثة ووزن كل شؤون الحياة بميزان الحالة الجديدة والبحث عن تلاؤم صيغ جديدة.. الانطواء.. اللامُبالاة وتتساوي قيم الأمور إلى حدود عدم القدرة على الفرز بين إيجابيّة الحياة وعدمها.. الصمت الطويل وأشباه متشابكة.. يقولون واصفين؛ «الكآبة».

إن «زاهـر» في مثل تلك الصباحات البيضاء، لا يفتح نافذته لدخول حُمّى «لماذا وكيف»، يُغلقها بكل ما يمكنه من تحايلات، مع إدراكه بأنها مغافلة للذات، من قبيل الاستمتاع تحت غطاء الهروب والبلادة..

(إننا نحتاج للبلادة أحيانا بل نتمنّاها كالعلاج)، الأمر لا يتخطى عنده مفهوم التجاوز أو الغياب القسري، ربما كان ممن يؤمنون بالتدريب النفسي بقصد التعوّد، أو العادة التي لا تدخله مرحلة الانقياد خلف مطلب الأهواء وردع ما فقهه عن جده حين يردد، «إكـرام النفس هواها»، على نقيض ما تعلّمه وقت الدراسة في الشعر العربي القديم؛

«والنفس راغبة إذا رغّبتها

وإذا تُرد إلى قليلٍ تقنع».

يذكر «زاهر» أن صديقاً قديماً له يمتهن العلاج النفسي؛ وصف له علاجاً مؤقّتاً..لم يسمح له بالإطلاع على ورقته الشارحة لمركبه

وتفاصيله.. والذي كان باهظ الوجود والثمن، ولكن أنّى لمدمن المعرفة أن يرضخ لنصيحة المنع !

** ** **

كان الصبح يصبّ بواكير نوره في مثانة الليل، وكان الشتاء يتنفس بارداً من مفاصل المعلول في القرية الجبلية البعيدة، ولد «زاهر» في يوم جديد بلا وجع، لم يكن في حاجة إلى تذكّر ليل البارحة الفائض بالسهر والجوع والظلمة.

السهر في الشتاء القروي البارد؛ لا يعني غير المرض أو الجوع أو طول الليل البارد، و«زاهر» الذي يرفع يديه مسلّماً بتقاليد البيت في الأكل والشرب وحدود العادات.. يأكل من أكل الجميع في البيت(سبعة أطفال لزوجتي الأب؛ وجد وجدة)... الفلاحة لم تعد تعطي للمجتهد نصيباً يجزيه، والريال شحيح، و الضوء في الفانوس البخيل يُطفأ بعد العشاء المحدود من صحن واحد، تُقفل أبواب الدار وينام الكل بعد الخبز أو اللبن أو السمن،(لايصلح مثل هذا الأكل لزاهر) يقول الطبيب،(هذا أكلنا المعتاد) يقول الجد للطبيب، وكأن الطبيب سيراعي عادات الطعام التي أوجدت نوعها «حسب الموجود».

والموجود محصّلٍ ما أنتجه الفلاح من الأرض؛ الحبوب وقليل الفاكهة الموسميّة والخضار.

مزارعو الوديان الضيّقة والمدرّجات الصغيرة.. يحرصون على استغلال مساحتها لزرع الحبوب - القمح- أولاً وثانياً ودائماً، ثم فرط همّتهم في قطعة منها تُسقى بالسانية؛ أو بالثور المفرد من ماء البئر في فصل الخريف وقت «الذرة». لا يُلقون للفاكهة والخضار

بالاً كبيراً.

هذا الصنف من الغذاء ضار بالصحة؛ وذاك مقبول لعدم احتوائه على الدهن والبقول؛ أمر ونهي، أو حظر وفرط، أو صالح وغير مناسب من الأطعمة في عادات الفلاح المتطبّع بعادة الغذاء من منتوج زراعته؛ وطبيعة منطقته؛ وحسبما رُبي وقوّت عمر أبوه وأبو أجداده وجدّاته، وجد أنه من ذات المكان.. لم يكن هناك ضرورة في المعيشة للاعتماد على النتاج «برّا» أو«بضاعة الخارج» إلا فيما لا يعتمد عليه في ضرورات العيش.. «القهوة أحياناً، السكّر والشاي ومثلها».

كان على «زاهر» القروي النشأة التي أحبّها..أن يكون واحداً من أبناء الفلاحين، أو أن يكون ــ ضمن الحالة الصحيّة التي هو فيها - ؛ رافضاً لقبول نوع مرضه.. إنه «مرض الملوك» وليس الفلاحين أو البدو: أيقاس نوع المرض بالطبقيّة !

الأمراض التي تعزّز من ذات طبيعة المكان.. يُمكن للإنسان أن يتلاءم معها أو يتصالح معها، أما إذا كان المرض غريباً فإن معالجته أو التأقلم معه صعب إلى قياس الهلاك.

مرض الملوك من قال لك مرحباً في ديار الفلاّحين !

نحن قوم غذاؤنا نستطعمه من محصولنا.. كيف يجيء ونحن لا نأكل الطعام بالسكر»، السكر لا يصيب إلا من يأكل السكر «هكذا نفهم.

** ** **

قلنا إن صباح «زاهر» القروي كان وحدة طيّبة من غشاء الليل

الطويل البارحة، وأنه منذ آخر يوم أخذه جده إلى الطبيب في سوق القرى..

أيام يدخل آخرها في دورة الأسبوع، لم يكتب ل «زاهر» أن يقابل الطبيب البعيد، فكان صبحه أليم.. الاختناق يدب في صدره وينفذ إلى الرئتين والقلب.

قال الجد؛ عرفت.. الولد يحتاج للغذاء، جاء بالتمر الأصفر المجفف وبالزبيب «الدكاترة؛ ما يعرفون إن دواء المريض.. الغذاء»!

المعلول «زاهر»، يختنق متصاعداً، ومدججاً بعدم المعرفة، وقادرة عيون الأم على الغيض والصياح إذا غلب الأمر، أما الجدة؛ فإنها تُحسن على مضض كيف تُدير المريض ليواجه القبلة فتنطق في آخر النزع عنه بالشهادتين.. تكررها بصوت مسموع ولله فيما يختاره الخير.

أخذه جده بعد مخايرة بين الفقيه والطبيب.. إلى مكان الدكتور الغريب، وكان المريض مردفاً خلفه على ظهر الحمارة ؛مكتوياً موجعاً خائفاً.. يزفر متقطّعاً.

انتظرا إلى أن هبط الطبيب ببجامته المخططة، كشف بالسماعة على الصدر و البطن والظهر، وأمر«التمرجي «بإحضار كوب ماء يذوب بداخله السكر !.

شرب المختنق فغاب عن الوعي، لم يجد جواباً «الدكتور» سوى الخلاص من مريضه:

- «بُص يا والد.. ابنك ؛ لا زم تأخذه دي الوقت إلى مستشفى

الطائف».

- حسبنا الله ونعم الوكيل. أخاف يموت عليّه في الطريق».

خلفما دارت سهام الساعة دورتين؛ غائبتين عن وعي «زاهر».. وجد إلى جانبه أربعة أسرّة بأغطية بيضاء ثقيلة وأثاث شحيح، وكان في واجهة المريض الذي قضى فيما بعد معه ليال ممتلئة بالنداءات الطويلة.. تضاعفت دون أثر لتهدئة ابنه «سعيد «المرافق، وحيثما وقف بدوي في منتصف العمر والقامة.. يجوب بخطواته البلاستيكية اللدنة فراغ الغرفة؛ ما بين الباب إلى النافذة الخشبية المطلّة على أشجار عالية مدبّبة؛ يكاد يلمسها ماداً اليد من الدور الثالث، بينما كان يعوي صبي صغير في السرير المجانب للباب:

«أبغى.. أخرج..أبغى أخرج».

ويرد البدوي بين فينة وأخرى:

«و راك يا وليدي.. و راك ؛ اصبر.. هداك الله».

زاهر«يتمنى أن يرى وجه جده، أو أحدا يعرفه، تمنى لو يهرب.. لكنّه لا يدري أين الطريق التي توصل إلى محطة الشاحنات الموصلة إلى الجنوب.. بلا حذاء.. بلا نقود.. بلا علم بعودة جده إلى القرية ثم توصية الطبيب المشرف مع مزيد الشكر والدعاء، والعودة بعد أيام - يتعالج خلالها «زاهر»- أربعة.

«نهقة أبو زيد» يسمعها «زاهر» لأول مرّة من فم البدوي؛ حين اضطر للخروج بابنه إلى الشارع القريب.

تحدّث مع «زاهر» بكلام طيّب، وقال إنه جلس مع جده، سأله إن كان في حاجة شيء من الشارع، خجل منه واستحى أن يذكر

حاجته للحذاء ونقود توصله إلى ديرته.

عاد البدوي بابنه، وهو يقول له:

«هاه.. راحت نهقة أبو زيد».

في كيس الورق الأصفر؛ الذي فتحه بين يدي «زاهر».. أربع تفاحات حمراء كبيرة.. لا يمكن لفواكه الأرض أن تبلغ طعمها ومدّتها.

** ** **

قلنا..

إن الطبيب الذي كان رافق «زاهر» في مرحلة بتر رجله بمستشفى العاصمة.. لم يكن على علاقة حسنة بمريضه، مع أنه تقاسم معه ذكرى وميضه حول المدرسة الإعدادية التي درسا بها دون ملاقاة، وكان مديرها ومدرسوها؛ هم الرابط في استذكارهما لتقريب سنين التخّرج كفارق بينهما.

على سبيل الذكر.. سأل «زاهر» طبيبه إن كان يعرف فلاناً وفلاناً، ولم يكن موداً في بناء جسر علاقة به؛ ولكن دوافع البحث عن أسماء ووجوه تعبير بعض الألفة في ديار دراسته الأولى.. ربما دفعته في هذه الهنيهة أن يقول شيئاً ما.

في ابتسامة مثل خط «الطبشور» الأبيض منحها الطبيب برضى قائلا:

- «منصور..؟!، الله؛ يذكره بالخير.. تخرّج قبل عامين من الأزهر، هالحين يمسك منصب كبير، منصب إداري».

- «منصب إداري، يعني بعد تخصّصه في اللغة العربية؟!».

- «لا..تخصّصه؛ ما كان في اللغة.. حصل على دكتوراه..في نواقض الوضوء».

- «بارك الله..دكتوراه !، طيّب ؛وفلان؟».

- «لا أعرف ؛ يقولون.. فشل في دراسته، ما وفّقه الله، جرى وراء المخدّرات».

يودّ «زاهر» لو يقول شيئاً..يود لو يقول لطبيبه ؛ إن المرحومة جدته.. لا تعرف القراءة والكتابة، وأن لديها معرفة كاملة بنواقض الوضوء.. دونما قدرة عل فكّ حرف الهجاء!، لكنه لحظتما رأى الطبيب في أول جوابه عن «منصور«؛ مبتسماً وراضياً.. لم يجد مجالاً للقول، فآثر أن يعابث قوله فيما بين منخريه وبلعومه دون إخراج، وكان الطبيب قد وضع عن يده «الطبليّة» على طرف من مساحة السرير، وكأنما ينفح بها على وجه الماء، وضع قلمه الجاف الأنيق بسرعة في جيب صدره وخرج دونما سلام، و بقي لبنطلونه الأسطواني الأزرق، وخطواته المعقوفة من جانبي الركبة.. انسحاباً مُتمايلاً في عيني «زاهر».

بعد وقت لا يزيد عن فرقعة الأصابع ؛ عاد.. اندفع نحو الملف، فتحه وهو يرمي بعصبيّة:

«اسمع يا زاهـر.. يا أخي أتعبتني معك.. السكر عندك مش مضبوط»!!.

و..

بذات الحركة.. ألقى بالملف، وخرج رافعاً بصره في باب الغرفة

العريض ؛ الذي ترك في المسامع صريره السريع ؛ يذهب ويجيء كالأرجوحة الخفيفة.

بينما انشغلت الممرضة(التي لا تبتسم أبداً، وجسمها الطويل الممتلئ؛ يشبه قامة الرجل).. انشغلت في اغتصاب بسمة مُريبة، بيضاء فارعة بملابس التمريض.. تنثر كلاماً مُتلاحقاً(بلهجة إنجليزية) عن جمال الزهور الحمراء الكبيرة في ركن الغرفة، فهم المريض بعضه.. ستكون شاكرة لو حصلت عليها، حيث لم يعد في أماكن الزهور من الورود الحمراء باق، فالمناسبة بعيد الحُب غداً... وافق «زاهر» وهو يترنّح بين بطاقة الصديق الذي أحضرها ؛ وبين مناسبة جميلة ليس لها في البلد من يذكرها، وكيف لو أن طبيبه قبل قليل عرف عن فعلة «النصرانيّة» هذه..

** ** **

وقت الزيارة في نظام المستشفى يحمل إلى غرفته أصدقاء طيّبين.. «زاهر» لا يعرف من سيزوره اليوم، الأيام العشرون الفائتة، لم تخبئ صديقاً أو صديقة في حاشية العاصمة لم يزره، أو هكذا بدا له... يكاد يخطئ، وينسى عديداً لو هاتفه أحد.. فشكره على زيارته الصوتية.. يردّ الهاتف بأنه عاده البارحة أو قبلها !

(يا للخجل.. انفض ذاكرتك يا...)

(محظوظ بصدفة الأصدقاء الذين يدخلون من هذا الباب العريض.. لا يكاد يهدأ صريره.

بعضهم يجيء حاملاً فوق ضلوعه حدائق الدنيا، وبعضهم يجيء وعلى صدغيه علامات الوفاء، البعض يجيء من أجل أن يجيء مع

الذين سينقل معهم حديقة بابليّة كبيرة ؛ بحجم كل الناس الذين يشتدّ بعظمتهم المجهولة قلب «زاهر» . .

الله ؛

إن كان الصخر لا يخجل من حبوب الماء ساعة المطر .

الله . .

إن كانت قافلة في صحراء «النفوذ» لا تحثّ السير على أمل في لقاء واحة قريبة .

الله؛

إن كان الصعلوك «سليك بن سلكة» قد غشيت عيناه فضل بوصلته ليهتدي . . في ليل مغيم بنجمة «الطارق» ، وقد أغار خفية على قطيع ل بني «زرقاء اليمامة» . . ولم يحظ بغير بعير فتك الجرب بأد يمه وعزّ القطران على صاحبه ، فكان نصيب الضال ، وكيف يُخمد رغاءه المجّاني ؛ تستدل به «كلاب الحوأب» النابحة في عيون النجوم ورائحة الغريب ولو . . على مبعدة ألف فرسخ مما يقطع الفارس على الفرس ، فينفذ «ابن سلكة» بجلده ، أو بغمد سيفه وبدنه ، أو ببقيّة باقية في دوافع النيل من مال الأغنياء ونثره عل كل ذي قلّة في القوم .

لكن اليمامة لديها زرقاء ، و زرقاء لا تكذب نبوءة عينيها . . يكذب النبّاؤون وتصدّق العين ، ويصدق السمع والشم والضم حتى في رؤى الأحلام .

«ابن سلكة» لا تخفى عليه عين «الزرقاء» ، والزرقاء امرأة موصوفة بالكمال وأنهار الليل المظفّرة والخضاب ؛ لكنها ليست بأقدر من غارة السارق في الليل ، و لا بأبصر من توجّس الكلاب في غُمق الغداري ،

وماذا نلت ياسليك ؛ في «بطحاء نجد» غير مريض الأبل! حازوه عن القطيع خوفاً على الصحيح..

إن الأشجار لا تمشي، لكن عين «زرقاء» لا تكذب ولو كذّب قوم اليمامة نفاذ بصرها.

الله؛

إن كنت يا ابن سلكة ؛ قد سقت جرباء الإبل إلى فقير «بني تميم» حفيد الطائي.. فأطعمك عشاء فروخه، وشكر لك منحتك السلكيّة؛ دون عيب في عطيّتك، ما أنت بالذي يعطي الضعيفة من حُمر النعم، ولا النطيحة في«الحلال» أو المترديّة..وما أنت بالذي أجربتها، وقعت عليها يدك في ظلمة غابت فيها القمراء، فكانت عند التميمي أغلى ما يناله الفقير المترب.. تنفعه في الاستعانة على مدد الحياة، إلى أن يفاجئوه بالنـزول ضيف، يهوي بخنجره في نحرها ليطعمه بها !.

أرأيت يا ابن سلكة.. لقد ضحك منه قومه، وعيّروه بالخبل!، وأنت يا إمام الصعلكة حننت للديار فساقك الشوق إلى بيوت الحجارة والمعلّقات).

** ** **

قلنا..

إن باب الزيارة في المستشفى يفتح ما بين ضفّتي السابعة والعاشرة؛ في الربع الاول من الليل.. فيفتح «زاهر» أبواب قلبه لزوّاره، و كلّهم يدخلون هذا الحصن الصحي أحراراً، ويدخلون برغبتهم أحرارا، لعلهم يعلمون أن جميع التُّهم.. يُمكن مساجلة عقالها؛ إلا المرض.. التهمة اليتيمة في الحياة؛ التي تدخل سجنها

دون سبب يربطك باقترافها، وأنت الدائن فيها والمدين، لا خصم لك، ولا قاض، ولا مدافع أو مستأنف.. لأنها دون اختيار أو رضى، ودون دفاع أو شهود أو مُزكيّة.

غير أن المريض، لا يشغل ذهنه بمثل هذه المداخلات.. لأنه من قناعته يعرف أن «لو» تبرير العاجز الذي يتعلّق بأوهن الخيوط، يندف صدره بالزفرة المتحسّرة، ويهيىء متاكئه للعجز!.

المسألة الآن أن «زاهر» لا يذكر شيئاً من حالة المرض في حضرة زوّاره، ولو قضمه الألم وسطهم لما أبان.. جاءوا ليتحدّثوا في أمور خارجيّة خارجة عن حال المريض والمرض، وشارك الحديث والضحك؛ ودخان السجائر أحياناً.. اليوم نشرت الجريدة قصيدة جديدة للشاعر فلان.. مجلّة..نشرت قصة لفلان، لم ينته الحوار حول التراث والحداثة، صورة للفتوى الدينية المنشورة حول تحريم لبس البنطلون على النساء.

اختراع دواء جديد لمرض السكر، يعمل عمل الأنسولين في الدم. رأي مؤكد بصدور ما يمنع تحريماً لفكرة العلماء الحديثة عن إمكانية «الاستنساخ» البشري..

(من يدري؛ ربما أعدوا لنا «هتلر» من جديد)!.

(أو يُعيدوا نسخة من «مونتجمري»؛ أو «روmل»)!.

(ولماذا لا يكون «روزفلت».. ليبدأوا من هناك)!.

ولكن..

- بماذا سيفتي البابا..

- حتى ولو أفتى البابا.. لن يتوقّف العلماء عند فتواه.

- العلم لا يحمل عصا على أحد؛ إن رفضته اليوم.. ربما قبلته في الغد.

- احترام حق الإنسان وحرّيته ؛ تستوجب مراعاة الأديان والعادات.. على أن يكون الاحترام مُتبادلاً.

- و لماذا يكون للبلاد الكُبرى ؛ بعد تفكّك «الاتحاد السوفييتي «حق استخدام «الفيتو»؟.

- لا سلام في قضيّة«فلسطين» دون شروط..

الأرض مقابل السلام، هل تُصدقون الإسرائيليين ؟!.

- طالما «الفيتو» في يد الأمريكان ؛؛؛.

مضخّم الصوت في الممرات ؛ يُعلن نهاية مُدة الزيارة.

يدخل «زاهر» في برنامجه العلاجي.. حُقنة، حُقنتان، رأس إبرة عريض موصل بأنبوب ؛ الأنبوب بزجاجة شفّافة، الزجاجة بها دواء مُركّب، الدواء حارق، ورائحة المرارة تتعلقم على سقف الحلق واللسان فيحدث الجفاف، وفي الأنف قطع دم متجمّدة (من أين يأتي هذا الدم الأسود المُتجمّد.. قبل وقت كان التنفّس صافياً وسهلاً... الفم والحلق مُتخشّبان، ولا مكان لمرور التنفس، الأنف....!)، يميل على جنبه الأيمن فلا يجد توازناً في حمل الجسد برجلها الكاملة على الناقصة، يميل على جنبه الشمال.. تهتزّ أعصاب الطرف المبتور.. «يا سيستر»، هو لا يستخدم صوته.. يضغط على مبصم الاستدعاء، بعد مُقايضة مع الوقت.. تدخل الممرضة على عجل.. تهمهم بشكوى الضغط في العمل.. يقدم «زاهر» عذراً وتقديراً

وأسفاً ؛ تقول بإنجليزيتها الصفراء ؛ لا بأس.. هل من خدمة ؟.

نعم لو سمحت.. فمي مُرّ وجاف، وأنفي مسدود بدم جاف، أنا لا...

(أوضح لها بإنجليزية)، ترد، بأنها لا تستطيع أن تعينه بشيء؛ فهذه خصائص المضاد الحيوي، وأن الطبيب وضع له منوّماً مُخدّراً.. يمكنها أن تستأصله في حقنة و...

- سأنام..اهدأ جداً، لكن كيف أتنفّس؟!

-.........!.

تخرج الممرضة من الباب دون إضافة في الكلام، كالزنبرك.. تحمل في يدها حُقنة حُبلى بسائل أبيض؛ رأسها نحو الأعلى..لا تتكلّم، تميّل المريض على إليته، وتغمس الإبرة حتى العظم.. وتُلبسه الغطاء الأبيض، تطفئ الإضاءة وتخرج.

(مسكينة ؛ تظن بأن المريض سيستسلم للظلام ؛ وهو لا ينام بدون ضوء).

دواء الحقنة يدفع بفعاليّته في البدن، الدواء المخدّر أقوى من احتمال الجسد النحيل.. لكنه لا يخمد الأعصاب الساهرة، ساعة.. ساعتان ؛ قمّة المفعول ؛ نم.. نم.

يغفو.. يرى صخرة كبعير بلا قوائم، يربض فوق صدره، يصحو مفزوعاً ؛ يتلمّس مفتاح الإضاءة القريب، يقعد كزاوية منحنية ويتنفّس قليلاً... سعيد فلا زال الضوء يقهر الظلام، ولا زال التنفس يعني الحياة، ولا تزال الحياة جديرة،و...ذهب:

(هل يحيا البشر من أجل البحث عن السعادة؛ بمعناها المطلق؟!.

وإذا قلنا أن سعادة ما.. مربوطة ببحث ما لشخص ما.. استطاع نيلها والإمساك بها في قبضته – كقطعة نقود نادرة وثمينة –، وراح يعصرها، يشدّد الضغط، وفجأة تسيل وتتمدد كرغيف أعظم في عين الجائع من شهقة القمر، ثم ينام كحافة الساحل المطمئن لعودة امتداد ماء البحر؛ لو غاب في جزر طويل..

– ماذا يريد بعد؟!.

لا..

– عُد يا «زاهر».. إنك تُحوّل السعادة إلى أمنية محسوسة ؛ لا تخلط الأمور !.

– .. قلنا إنها مجرد افتراض لتحديد الهدف.

– هدف!، لا أظن أن السعادة هدف ذاتي، وربما كانت مشروطة باشتراك الآخرين.

– لماذا ؛ هل السعادة نكتة تقطفها وسط القاعدين، وتشتركون في الضحك بعد سماعها ؟!.

– ربما مثلاً ؛ وإما.. لا!.

– يعني ؛ أنها محدودة بطوق زمني !

– حتى عمرك محدود بحلبة زمنيّة، تستطيع رسم مساحتها إذا رغبت في الموت.

– لا..

السعادة هي تلك التي تبدأ من رأس إصبع قدمك، وأنت تمضي في مشوار لا تعلم؛ كم يستغرق منك.. كي تحصي عدد نجوم السماء.. بإرادة وقناعة وإصرار، حينها تستطيع أن تقول إنك سعيد.. لأنك وجدت أن الصبح قد طلع؛ وأنت لا تدري إن كان عدد النجوم كافياً إذا ما رحت توزّعه على كل بشر الأرض).

قلنا..

إن الصباحات النقيّة كالحليب..

الحليب النقي الذي لم يعرف بعد الشاي والقهوة، ولم يكن قد تعرّض لأي اختلاط يعكّر بياضه الطازج، حين يكون متماسكاً كضفائر لا تراها عين الشارب؛ وقت إذ تحويه زجاجة صريحة لا تعرف الإنثناءات و الاستطراق.

ذلك الصباح الحليبي الصادق.. كان «زاهر» الوحيد في هذه القلعة الصحيّة التي يكون لمثيلاتها مداخل جانبية استثنائية؛ يسمّونها «الطوارئ».. الوحيد الذي دخل من الباب الاستثنائي الخاص بالحالات الطارئة.. دخله قبل أن تنفض الشمس لحاف الليل بساعات قليلة، وبقي وحيداً حظيظاً منعّماً بوقت ربما تجاوز فيه الزمن ذاته، أو تجاوزه الزمن، الزمن بساعات أربع؛ يزدن أو ينقصن قليلاً - على ذمة الحي -، وربما خلع نفسه، أو أُخلعت خارج حركة الزمن، الزمن حين يبقى محتجزاً بالمكان وبحركة الناس، وحركتهم عندما يحركون الأشياء وتغدو للناهض من القبر بعد قرون طافت فوق رمشه؛ مخترقة الجمجمة والعظام الخفيفة بفعل النخر والوقت.. (لماذا تبقى أسنان الإنسان مصفوفة ثابتة في مكان الفم؛ لا تسقط)؟

الزمن..

لا يمكن القول إلا أنه كان جامداً في ذاكرة «زاهر».. لا ينود بفتفوتة من ثانية، أو جزء من مليون جزء منها..كان كله يحيا؛ بكل عضلات أضلاعه وتنفّسه، وصرير أسنانه، وهمهمة المحتضر، أو تأوهاته الحلزونية المتقطّعة !

يالها من ذاكرة تفصّل براجم البشر؛ دهشة وحيدة.. بقيت مشدودة بحرقة بلح لا تقطر، ولا تسمح للهواء منها بنفوذ، محنّطة داخل لفائف تمنعها من المعايشة.. إنها مُلغاة وليست «في إجازة» كما يقول لسان المعتاد !

أليست الذاكرة بموكلة في شأن الإحساس بالزمن، أليس الزمن البشري قد قيس بدوران الأرض، وتأثير وأثر الكواكب المحيطة التي مرجعها الشمس.. الضوء في النهار، الظلمة في الليل، أما النجوم البرّاقة ليلاً في السماء.. فإنها تقتبس الضوء، فتحيط به أبدانها وتغدو في عين من يستقصيها بصور وأشكال ومسمّيات.

لقد كانت كل الكواكب والمجرّات والشموس؛ معطّلة لمدّة يكتبها الأطباء ببلاهة في ملفّه(تزيد أو تنقص قليلاً عن أربع ساعات ؛ تمتد أحياناً فتلمّ النهار بأكمله، أو تلمّ النقيضين من وجهيّ عملة واحدة اسمها: يوم).

عجباً..

هل استطاعت ذاكرة هذا الجسم النحيل المغزول بالأحلام والأمنيات العسلية؛ والصعود فوق أعلى مرتفع على صدر الأرض، هل استطاعت فعلاً أن تمد سبّابتها «الهتلريّة» في مسيرة دوران الكوكب والمجرّات.. أن تعطي إشارة الصمت الجامد، فتكبح دواليبها دون الاستمرار في أبديّة دورانها !

ليس «ربما» ولا «حينما»..بل: نعم !.

يسميها أهل الطب «غيبوبة سكّريّة»، ليسموها كما يحلو لهم أو يملّح لهم أو يمرّ.. لا خلاف، لقد كانت تعني عند «زاهر» أن كل المتحركات فيما يحيط به؛ من قريب أو من بعيد جداً.. النفي خارج دوران الزمن، هو ليس في ظلمة نجم أسود، ولا أبيض أو بنفسجي.. إنه في مكانه بطوارئ مستشفى بشارع ما.. بمدينة ما؛ على سرير أبيض ما، لم يحرك رمشاً ولا طرفاً.. لا لساناً أو حنجرة.. في لحظة لا تتقدّم قيد ذرّة ولا تتأخر.. جمع أشلاء المحيط، و.. غاب، غياباً غير الذي قال عنه«نيتشه» حلم جميل«، ليس جميلاً ولا قبيحاً، ولا وردة ولا سكّيناً، كان خارج كل ذلك.. خارج كل الميتافيزيقيات، خارج تصورات حضور المحاسبين والوكلاء ومعددي الأخطاء والحسنات.. حيث لا شيء، ولا شيء يأتي بشيء، العدم ليس «أزرقاً» كما يؤكد إمام الفلاسفة «حسن سعيد»، الصديق المنسي.

لقد أصبح العدم عدماً معدوماً لا يمكن وصفه، ولا التنبؤ بما يؤكد له أية صفة.

الصباح كان حليبياً في اللون والطعم والرائحة المماثلة لرائحة أنوف البقر.. تلك التي ركبوها في المعامل؛ لكي يعززوا بذباب البقر الأفريقي، كل الكائنات الأفريقية؛ يرونها مريضة ومضرة بالدماء الزرقاء؛ وأولها الكائنات البشرية !

«زاهر» حيث تبدأ ذاكرته تستيقظ خلاياها كالنبات المصوّر بالحركة البطيئة بمصورات العلماء المتحركة، تستيقظ بادئة بحاسة السمع.. التصوير السمعي، يسمع الأصوات فيردها بحلم إلى مصادرها المعرفية لديه، أو تكون خارج معارفه ؛ فيصورها بانطلاقة

وحريّة كما يريد، أو كما تشاء مخيلاته الشبه غافية في لحظته تلك.. تبدو الأشياء حليبية صافية، أو كما لو أنها جميعاً تحت شرشف أبيض كبير؛ يسيل خفيفاً قرب نافذة مشمسة..

ما أبهج الأشياء !

كل شيء مبهج.. أبيض نقي؛ كامل الطهارة والوضوء.

حينها يتأكد ل «زاهر» أنه غاب عن الحياة زماناً، وعاد.

أين غاب..

كم لبث، بعضاَ ؛ أو بضع سنين.. قروناً..لا يدري ؟

كل الذي يدريه ؛ أنه كان غائباً، بل إنه لا يدري لولا تأكيد المحيطين والمشرفين عليه..يسمعهم بادئاً يقولون:

«صحي ؟..زاهر..زاهر..يا زاهر ؛تعرفني ؛من أنا».

يرد بصوت متباطئ متردد، وهو يرى الطبيب بلباس حليبي:

- «أنت ؛ قربة حليب..قربة شفافة ممتلئة بالحليب»

- «حليب»!

تضحك الممرضات، يلحق بهن طبيب إسعاف ؛يمر قربهن..يقول مبتسماً:

- «دعوه.. يمكن يحلم بالحليب «، تقترب ممرضة:

- بدّك ؛حليب يا..زاهر»

ببطء متريّث، دون أية حركة يجيب:

- «لا..لا؛ شكراً.. أنت كمان..حليب، وعاء مطاطي محتقن بالحليب الأبيض».

يُعاودون ضحكاً خفيفاً، يتبادلون العيون، لا يفهمون ما يقول.. يقول طبيب الإسعاف في غير اندهاش:

- «يا جماعه..اتركوه، يمكن يتصوّر إنه شاعر».

«زاهر» يتفتّق بالصحو، يضحك في داخله..الأشياء تأخذ صبغة الحليب ؛ جميل، يودّ لو تبقى جميع الأشياء تحت شرشف كبير كالنهار؛ يقوم تحته الثوابت والمتحركات.

يحرّك جفنيه.. تتحرّك أصابع يديه، يمسح على شاربيه العريضين.. يخجل لحظة، ثم يتجرّد بكفاءة من قيوده الاجتماعية والجنسية ومن الوصايا والمحاذير وضوابط العيب والحرام:

- «اسمحوا لي.. هل رأيتم غزالة عارية ؛ مُغطّاة بالحليب..تمر من هنا»؟!.

ترد ممرضة سمينة:

- «إيه يا راجل.. يا زاهر ؛ إنت بتخرّف وإلا إيه» !

صوت الطبيب الإسعافي:

- اتركوه.. خلّوه.. يأخذ وقت؛ كمان.. شويه».

صوت الطبيب الحليبي:

- هوّا..صحيح.. يحتاج شويّه؛ وقت

صوت الممرضة السمينة:

- آه ؛ ده بيحلم بالغزلان؛ بعد شويّه.. يحلم بالحمير.

يدخل قريب «زاهر» الذي أحضره سريعاً، ويعرف حالاته:

- «سلام عليكم.. صحي يا.. دكتور»؟ !

- «أيوه.. الحمد لله، وصّلت الأوراق للمحاسبة»؟

- «قال شيْ.. من يوم صحي»؟

- «........».

يقترب من «زاهر» يضع كفّه على جبهته، يدعوه باسمه، فيجيب «زاهر».. يسأله أين هو الآن، يرد قريبه بأنه في المستشفى، حدثت له غيبوبة بعد أن أخذ حُقنة «الأنسولين».. يضيف:«.. وطبعاً.. كالعادة..».

قليلاً.. ولم يبق من المسعفين نفر.

** ** **

(لم يكن المريض الذي تعوّد على جدولة طعامه وشرابه، وأوقات عمله ونومه، وأوقات علاجاته.. لم يكن ميّالاً إلى الأكل، غالباً يتعامل مع طعامه وشرابه كالضرورة، مثل واجب العلاج بالأدوية.. حبتان من هذه الزجاجة ثلاث مرّات في اليوم.. حبة من هذا، كبسولة خضراء من هنا، ثلاث كبسولات حمراء صفراء.. مُلبّستان بُنّيتان، مُلبّسة كبيرة بيضاء، واحدة حمراء، حبتان مُتوسطتان من هذا الشريط، هذه البرتقالية اللون النعناعية.. واحدة تحت اللسان وقت اللزوم، الشراب اللبني ملعقة شاي صغيرة ثلاث مرّات؛ قبل الأكل أو بعد النوم لا خلاف، لا يعنيك كثيراً هذا السائل الأصفر.. ملعقة ملعقتان، أو

ملء الغطاء، إنه يصلح في كل المرّات، ويصلح أيضاً لُعاقاً لذيذاً فتّاكاً بالصراصير وحشرات القرص الجلدي الليلية !

يكتبون على الزجاجة الثقيلة من الخارج: «أبعده عن متناول أيدي الأطفال» !، حتى هو طفل كبير يحتاج للعب أحياناً بسيّارة «جيب» بعجلات.. يقودها بحبل طويل.. يحلم بها منذ الطفولة، ويحلم بأغطية القوارير.. يجعل منها دواليب صغيرة لهيكل خشبي على هيئة سيارة شاحنة.. شاهدها مراراً، ترد القرية وقتما يعود الناس من الحج.

لم يكن «زاهر» يحب الطعام، يتصور أنه دابة تُشبه البقر؛ تأكل كل ما يشغلها، الأكل، كل شيء أخضر ترسله إلى تجاويف بطنها..

يحدث أن يكون لسكّره غير الثابت بفعل الهرمونات.. أن يُعطي إحساساً بارتفاع الحرارة، والرغبة في شرب الماء البارد، وتقول النتائج السريعة لشريط التحليل..ارتفاع فوق المعدّل للسكّر في الدم، فيلجأ إلى زيادة جُرعة هرمون «الأنسولين»، بعد وقت يهبط السكر تحت المعدّل! قبل الوجبة وبعدها، يكون الهبوط شديداً خارج إمكانيّة السيطرة، وتكون الغيبوبة، الإحساس، النتائج.. قد تكون عكسيّة، و.. تحدث الواقعة التي تُنفيه خارج الزمن، لا تكون إلا من الانخفاض، الانخفاض فقط يأخذه بعد التشنّج والهمهمة الحلزونيّة؛ خارج الزمن. ليس صعباً أن يكون ذلك في ظرف غياب شامل، وصعب أو مستحيل أن يصنع ذلك بإرادته !

إذاً..المسألة بعيدة عن كونها أسطورية،أو قدرة فوق قدراتهم البشرية، هكذا يرى المريض، أليس هذا دليلاً مهماً على أن لدى الإنسان قدرات مخبأة في أعماقه، وهو لا يثق بها، لأنه لا يعرف عنها

أي معلومة!.

عندما يحتاج إليها في ظرف عصيب؛ تخرج إليه.. إنها خارج تصور المدارك، وتموينها الغذائي.. يكون على نفقة الاحتمال النفسي - الترحيب النفسي - ؛ حيث المرء أكبر من تصوّر الناس لأقصى إمكانيات الجسد البشري.

الإنسان عظيم، لكنه في الغالب -وهذه مأساه -..لا يكون مستعداً للممارسة العظيمة في وقت احتياجه لها.

لماذا؟

لأنه يسبق قدراته بخطابات القبول والاستسلام.

المعنى هو: سلبيّة التوقّع، ليس ضرورياً أن تكون العظمة مُدركة - كنوع من الثقة - عند حاملها، بل أظن.. أنها لا تكون كذلك.. إذ أنها مشروطة بمعرفة صاحبها لها، وكقانون طبيعي في الكائنات.. فإن الحمار مثلاً.. لا يعرف أنه حمار، لذلك فهو يتعامل مع الصعاب بمقياس الدراية المدركة وليس بشيء آخر، كذلك الأسد، الذي جعلناه ملك الغاب بسبب خاصيّة القوّة البدنيّة والشجاعة ورفضه للجيف، أي أنه لعدّة تميُّزات قريبة من مثيله الإنسان، يراه بعين الإكبار والعظمة، هو لا يفهم هذه الامتيازات، ولا يعرف أنه شجاع وباطش في قدراته الجسدية الحيوانيّة أيضا.. يتعامل بحكم قدرته الشجاعة الباطشة، دون أي معنى لإدراك هذه المواصفات.. أي أنه لا يدري أبداً أنه «ملك الغاب» ولا يحزنون، سؤاله الشاغل الذي يُعانيه؛ يقع في:

لماذا تهرب مني الحيوانات كالبرق، ألا تعلم أنني أحتاج إلى لحومها!

الأمر على الصعيد البشري؛ يختلف جوهراً، لأنه لا يقيس المصاعب الصحيّة إلا عبر النتائج.. النتائج المختبريّة، وأجهزة القياسات الدقيقة، هنا قد يكون الخطأ.. لماذا بمقدار إحساسه بالعافية، وليس بالمرض !.

المرض مسألة غير اختياريّة.. أي أنها لسبب أو لآخر؛ تعيش في داخل بدنه –دون ترحيب–، وهذا التعايش اللا اختياري.. يحتاج مصالحة، وليس الرفض والعناد.. إذا أردت أن تهزم المرض.. فتعامل معه بصورة حضارية..ليس تحايلاً، وإنما المواجهة الصريحة؛ التي يعتبرها الناس البلهاء؛ عيباً، وشفقة واستسلاماً وتوقّعاً سلبياً لتراكم مرضي؛ يختزل داخل بؤرة لا قيمة لها في منظور الحركة الكونيّة.. لم ينفذ إليها ضوء، ولا غاز، ولا غبار، ولا ماء و لا نار و لا تراب، ولا كُلّ التراكيب التي بلغها العقل الصوفي أو الكوفي.. أو «الليزر»، أو هندسة الجينات، أو طفل الأنابيب، أو المقدرة على تحليل أشعّة الزمن المطمور تحت تراب المكان، بكامل فكره وعناده، وتجهيز جنوده، وسط صحراء «الخماسين».

لا شيء.. وكل شيء ؛ يصبح متوقفاً، ومرهوناً بمدّة ليس لها قانون مضبوط ومقنن؛ ينطبق على جميع الذاكرات البشريّة..«زاهر» يهزأ بفتافيت الغياب، ويفرح لصباحات مُشرقة مسكوبة في إناءات منشورية هادئة عذبة.. مثل هذا الصباح الحليبي الذي لا يدركه عقل الإنسان ومخترعاته في أنحاء الكون والفضاء والكواكب الجارة.. يبقى بقياس تجربته وحيداً يعيش هذه المفردة، فليست كل الإغماءات متساوية؛ وإن كانت جميعها تتقابل في شرطية توفّر «الأكسجين» لمدّة لا تزيد عن سبع ثوانٍ.. فهل يبقى الإنسان قريباً جداً بحجم تكسير الثانية..إلى أن تأتي مقدرة تحليليّة علميّة جديدة)!

الفصل الثالث

الطريق الواسع البعيد.. يحتاج إلى عدد من الساعات؛ لا تقلّ عن الأربع، لكي تسكت جَلَد السفر من المدينة الشرقيّة إلى العاصمة.. دون توقّف.

المدن البعيدة توحي للمسافر بأنه يكتشف بُعدها لأول مرّة.. المدن

بالذات.

كان «زاهر» يتحوّل إلى شنّ يتضوّر في شمس الصحراء؛ بعد تركه بمدّة، بين الصخور واليباس، وكانت معدته ترفض حتى الماء.. فكان يعزّي حالته؛ بأن الامتناع عن زيادة السوائل.. يمنحه القدرة على أن يكون الجسم في حالة جافة، أو ما يسمونه ب «الوزن الجاف» وقتما يكون مريض الفشل الكلوي؛ خاضعاً لجدول «الديلزة»، غير أن حالته قد تجاوزت الوزن الجاف بجفاف ضار، المعدة لا تقبل أي شيء يقطنها، والإسهال المفرط بلغ عدد مرّاته الخمسة عشر.

عندما اقترب منتصف الطريق.. أحسّ المريض برجفة في الدماغ، ثم تهالك جسده، وزاد الخافق في عروقه.

دخل «زاهر» المستشفى بالعاصمة، بعد أن ابتلع رُكاماً من الزفير المكتوم، جعلوه على السرير و وجهه نحو السقف، و دلقوا في شرايينه العطشى كرماً مائياً ما كان ليحلم به، قليلاً.. كانت الأنفاس وضربات الفراغ في الصدر؛ قد انتظمت.. لقد كان الانخفاض في قلّة السوائل، وليس نقصان الملح.

** ** **

يتسرّب الليل موحشاً قاسياً، يوزّع الانتظار والسكون، يُضفي على «زاهر» ما يكفي لمائة عين ساهرة فوق الأسرّة، فيجلب التردد والخوف والبلادة، يُعيده كطفل جزع مرتجف، يتذكّر حالات الهروب من المصحات المدنيّة، والنفور من رائحة الأدوية والمطهرات، وجلجلة الأطباق، والمقصات و الأواني اللؤلؤية الصقيلة.. فوق سطح طاولات مستطيلة معدنيّة، تخنع لأيدي من يدفعها بعنف؛ ليدحش بقلقها في أنوف ومسامع المرضى.

الليل؛ وقتما يهبط على المريض؛ كجناح غراب ضخم، تتجمّع فيه حفحفة المتصنت بين حين وحين.. يثقبه صوت يئن ساهراً، أو متوجّعاً.. حيث تكون الغربة واللهفة لأي مؤنس أو أليف، أو مُتحدّث، التلفزيون المعلّق في الواجهة؛ يبثّ برامج باهتة على القناتين الأولى والثانية، أو كما قال أحد الأصدقاء «غصب١،أو غصب٢»، حيث لا خيار عنهما، وكلاهما للساهر المنقطع ؛ مغصوبة عليه.

..

بعد مفاوضات قصيرة مع المرافق الأليف.. يقرران الخروج من المستشفى وتخطي كل أعراف المريض المنوم الذي يخضع لدقة الفحص والمتابعة؛ وفي أمر بلغ فيه من المعاناة؛ أنه بكى بكاء من لا يجد علاجاً ولا حيلة في غرفة رطبة شاحبة الضوء والجدران؛ وحينما يدخلها الآن مثلما دخلها عشرات المرات سابقاً، فإن معدته تتقيأ ماءً، وتتقيأ أمعاءه سائلاً كالمُهل المصفّى من خشب القطران.. حارق حار أشدّ من زيت السمسم المتوقّد.

يا...للقساوة القاسية فوق أقسى المؤلمات..

(كيف يا زاهر المغزول.. ألست تتعمّد القساوة على نفسك، كيف تهرب من سريرك؛ عائداً في سفر ليليّ إلى منزلك بالمدينة الشرقيّة.. أليس هذا جنوناً، أو أنه توجّس الغزلان - يا مغزول - حين يكون أرهف ما بذهنها؛ أن تُعابث بانطلاقتها سباق الريح.. يالك من مغزول.. هائم بحب الحياة ومعاندة القساوات، والركض وراء الجمال ؛ والعوم في طيوف العشق وخيال تتكئ قوائمه على الأمل.. الأمل لا يتحالف مع الضعفاء، والعشق لا تستاهله المرمريات اللواتي يُحببن الرجال الأصحّاء حين تُشرشر دمعاتهم على أحبار عباراتهم الناعمة بين سطور البياض؛ ولا الحياة.. لا تحب من لا يُحبّها؛ ولا تثق بمن يغلظ لها بالقسم؛ أنه يُحبها لوفرة مالها، ونقاء تراخيها؛ فما أبسط أن يقول «يلعن أبوك حياة»، و يمُجّها كبصقة حاقدة وقتما يمسّه الضر والألم.. إنها تُحبّ ذاك الذي يحبها في الوجع واللذة على ألا يتوقع أنه سيجني من شوكها ثمراً حلواً طرياً.

نفسك الآن ترغب في ترك سريرك بالمستشفى؛ فوق امتداد الحميمية على أوراقك وكتبك وسجائرك).

كان طبيبه قد أذن له بالخروج في أول الليل؛ بعد عيّنات التحليل، من المصادفات الطيّبة..أن طبيبه المهذب.. من أولئك الذين يتعاملون مع مرضاهم كوحدة غير مجزأة: بدناً ونفساً ومجتمعاً.

لكن كل هذا لا يمنح مريضه العُذر في الخروج من سور المدينة؛ في سفر طويل؛ يعود فيه إلى المدينة البعيدة التي يسكن بها.

على أي حال..

ما الفرق..كله غياب ولن يحتاجوا لنماذج التحليل؛ إلا في السابعة صباحاً، أربع ساعات في الذهاب يُنفقها مع مُرافقه الحميم،

ومثلها في العودة.. ثمّة فرصة لسماع أغان قديمة شعبيّة في الطريق، هناك بعد الوصول؛ مجال لتدخين عدد من السجائر بلذّة الهارب؛ مع فنجان شاي ثقيل، الشتاء طيّب إذا كانت هناك قدرة على تركه خارج الباب، والجلوس قُرب المدفأة (**لا تشكّ في ضعف بصرك أو صحة بدنك.. أعزم وابدأ فوراً**).

لقد كان «زاهر» بعد أربع ساعات دسّ فتافيتها وسط دفء الهواء الساخن؛ مع مرافقه بالسيّارة.. فكان لهما ما نوياه بالتمام.

كرراها ليال ثلاث، تأخّرا قليلاً في صباح أحدهما، والطريق والعجلات وبرد الشتاء والاغاني القديمة، وساعة إذ يتحمم الفجر الصحراوي في خيمة آخر الليل، والسهر المطفأ بأجفانهما، وغير ذلك.. على ما فعلاه شهيد.

** ** **

...

لماذا يكون الهروب جميلاً في المستشفيات عند «زاهر» لماذا يكون كالعتق المؤجل، أو الانفكاك الموهوم بعدم العودة أبداً؟!

لماذا يكون لذيذاً مُبهجاً حُراً ومحاصراً، سجيناً بلا قيد أو قُضبان، ألم تكن حنجرة «فيروز»؛ على لقاء محتوم؛ بحكم مواطنة التشابه، أو من أجل صورة الحالة التي يحاول فيها مريضنا لململه أنحاءها؛ لتصب في غدير تبريراته أمام ذهنيّته الرافضة.. حين غنت:

«حابسني برّاة النوم؛ وتاركني سهرانة

أنا حبيتك حبيتك، أنا حبيتك حبيتك».

بالطبع لم تغنها من أجل «سواد عينيّ» «زاهـر»؛ حتى لو تمثّل مشابهة الأحوال، واختلاف المضامين.. هي فضاءات الفن التي لا تقيدك بشأن توظيفي محدد.

لماذا لا يكون «أبـو فراس الحمداني» قد تعمّد - مثلاً - ؛ أن يخفى سر عشقه عن «المعتصم»، ويتركه تحت حياكة الملحّنين أمام منزل «أحمد بن بلاّ»، أو «محمد فريد» في مصر، أو حتى «جعفر النميري» في السودان !

خُبال يا أبا فراس ؛ إن كنت تظن بأن الحمامة الطليقة تسكب هديلها الحزين ؛ أمام شُباك سجنك ذي القضبان الحديدية المفتولة.

حرام علينا جميعاً.. نسب إثر نسب منذ.. إن كُنّا نصدّق بأن هديل الحمام؛ ليس إلا الشكوى والدموع.

لعلّ الغزل الذي ينصبّ في مداخل القصائد المغناة.. قد أخطأ عندما راح يُمنطق فضاء تعبيرات الفنون!.

لعلّ ذلك ليس بعيداً.. ربما كان كذلك بفعل التحريض على إعادة الأمور واقفة على قوائمها.. ربما؛ لو آمنا بأن الهروب لا معنى له في عين المراقب؛ سوى عدم القدرة على المواجهة.. لا؛ ليس صحيحاً؛ وإلا لسلّمنا بأن الانتحار جبن وانهزام، ناسين أن المنتحر قد حقّق مقولة «الإنسان... يملك موته في يده»، وأن الانتحار صنف يدخل في صفة النصر، حتى ولو كنا نخضع الأمر لمنطق نتيجة الجدوى، فالجدوى لا تصلح لأن يأخذ العقل البشري بطرفين ثابتين.. مربطاً!.

الهروب عند «زاهر»؛ لم يكن مبرراً ب «لماذا وكيف» وأخواتهما..

لقد كان يعني بالدقّة: الحُريّة، وهي لا تقبل الوصاية والتحقيق في تلك اللحظة، ومع أنها مرهونة بالعودة؛ إلا أنها لا تعني دخول المساء بنفس الحالة وذات الشروط.. تأخذ صورة الانطلاق المشرق الجميل المبهج.

مريضنا ليس خائفاً من المواجهة.. مواجهة ماذا!، مواجهة العلاج وجدول التنظيم الحراري والمبولي.. كلا، ولا الهروب من مواجهة حالته الصحيّة المديدة؛ التي ألفها كما يألف خطوط كفّه، وفرشاة أسنانه، وتبديل ملابسه الداخليّة بعد الاستحمام، فمن أين يكون للهروب هروب!

يرى أن الهروب من المستشفى.. لا يختلف عن كونه تصرفا صبيانيا أحمق.. لأنه في جوهره يتعارض مع هدف الدخول.. الحصول على صحة أجود، أو اتقاء مخاطر صحيّة تنمو بفعل التراكم؛ لذلك.. لا يقف طويلاً حول منطقيّة الجدوى، ونتائج المكسب والخسارة.

(في عمر المراهقة الأولى، وبصحبة زميل دراسة، أو اثنين أحياناً.. **كانوا عمداً يقصدون الطريق البعيد إلى المدرسة؛ عبر الجبال والوديان.. حيث تختفي ملاحظة الأهل الغير قصديّة، ومتابعة وكيل المدرسة،(حيث يكون الكبير في المدرسة له حق الوصاية والعقاب أحياناً، أو التبليغ عن أي فعل مناقض للسلوك الدراسي)..يأخذون طريقاً مجانباً؛ نحو مجمّع سوق القرى، فيه السلع التجارية المستوردة، والمقاهي؛ وبها مطاعم صغيرة، و موقف للسيارات المُصندقة الكبيرة من وإلى أقرب مدينة للجنوب «الطائف».. معهم حقائب الدراسة، وليس دائماً تتوفّر القروش للشراء، لكنهم يجدون في الهروب من**

المقاعد المدرسية؛ نوعاً من تحقيق الذات، يعودون جوعى، أو شبه جوعى؛ وقت انصراف الطلاب بعد الحصّة الأخيرة؛ إلى منازلهم، وكأن هروباً لم يكن!

للسوق رائحة مُحبّبة؛ رائحة خُبز الفرن؛ الذي لا يعرفونه في القرى، رائحة وقود السيّارات، رائحة الفواكه في مناديلها الورقية الملوّنة.. البسكويت، الحلوى الطحينيّة، البطاطس المطبوخة باللحمة، رائحة الفول بالسمن البرّي.. أشياء كثيرة وصعبة الحصول ومُغرية؛ مرتبطة بيوم الهروب.. «الأربعاء» اليوم الذي سيصبح في الغد مركزاً لسوق شعبي كبير، يُؤتى إليه من جميع القرى القريبة والبعيدة،.. «الأربعاء».. يوم جميل؛ عذب، وملفوف بالمخاطر.. العقاب الشديد من الأهل لو علموا والتوبيخ والإذلال، ومن المدرسة لا يقل عقاباً وحرماناً وتحقيراً أمام كل الصفوف.

كان «زاهر» ولا يزال مُتأخراً في بعض دروس الإنجليزية، والرسم الهندسي؛ ومادة «الجبر»..استمرّ الغياب بصورة منتظمة لأكثر من شهر؛ في كل يوم أربعاء من الأسبوع.

يحدث أن يتسكّعوا في المقهى، يتأمّلون وجوه المرتادين وما على طاولاتهم..لعل باق من الطعام يبقى فيتسابقون إليه، أو فنجان شاي، أو ماء، أو ملح أو بهار، أو فتافيت خبز أو نثار سكر، أو أعقاب سجائر وفضلات صحون الفول.

الطريق في العودة.. لا تكون من قرب المدرسة، تمر من هناك.. مُحاذية لبئر ماء.. تملأ فيه البنات قربهن، ثم مرتفع، فمنخفض واسع يقع فيه بيت الأمير.. لا نقترب من الواجهة، نأتي بمحاذاة السور الخلفي؛ صندوق دائري من الصفيح؛ يتّسع لجسد ثور، به كنوز مما تبحث عنه:

أحذية شبه جديدة؛ صالحة لأقدامنا.. بعضها فُرادى، زجاجات عطر زرقاء فارغة، دفاتر قديمة ومجلاّت «ميكي»، بطاريات ثقيلة، مطّاطات سراويل غريبة مُستهلكة.. تصلح مشدّات نبال قويّة، بقايا خبز «الفينو»الأبيض الجاف، أرجل ورؤوس الدجاج.. كنوز لم يكتشفها أحد قبلنا، لقد وجدنا ذات مرّة لا تُنسى مزهريّة بكامل زهورها البلاستيكية المدهشة، وحدثت مشاغبات حولها، ونزال تقاذفناه بالحجارة، إنها لرجل أخذها ومضى، لم يتكلّم منا أحد!

إن ليوم الهروب شمساً في نهار مشرق.. تختلف عن كل الشموس، صحيح أن ذلك اليوم مطعّم بحذاقة المرارة؛ بسبب الغياب ونقص متابعة الدروس عند «زاهر» الذي يُضرب به المثل في الاجتهاد عند أهل القرية..لكنه لم يكتمل – على الأقل – داخل نفسه).

** ** **

هل لمعنى الهروب بعد منتصف الثلاثين.. ذات الطعم، وهل هناك رابط بين الهروبين على صعيد التربية؟!

«زاهر».. لا يجد رابطاً، ولا تلاؤماً بين النفوذ بأية حيلة، وبين الهروب من المدرسة، ألم يكن للنهارات التي يمنح فيها تصريحاً بالخروج (كوجع الأسنان) طعماً آخر يختلف عن بقية أيام الحضور الاعتيادي!

ربما، لكنه خروج عن العادة، وليس هروباً، لذلك فإن الشمس في اليوم المأذون تصبح قمراً صغيراً لا يضيء كل الجوانب.

المعنى الحقيقي الواضح.. أن الحريّة لا تمنح وإنما تنتزع، دون تحليل ولا بحث أو دراسة.. عندما يُحس المرء بكل مشاعره وجوارحه؛ أنه

حصل على قيمة ما.. تحقق فيها كرامته الإنسانيّة؛ فإنه بعد المناضلة يتحرر !

في المدينة الجارة للمدينة الشرقيّة التي يسكن بها «زاهر»، في تلك المدينة حيث هي سوق مناسبة للأجانب العاملين بشركة الزيت.. تكون المستشفيات الأهلية الخاصة، التي تقدم العلاج والإقامة المريحة الباهضة...

كان «زاهـر»، ولأمر ما؛ ينام بإحدى الغرف المكيّفة الهواء.. زوجة صديقه - المصري - تعمل بها ممرضة. على كُره؛ وفي غير وعي.. أُدخل - الطوارئْ - أحسّ بالتعب بعد سهر ثلاث ليال متتاليات؛ لحالة غرام كيدية.. لم يتناول عبرها حقنة «الأنسولين». مساء كان الوقت، عاد بسيّارته...كان يرى الطرق غير تلك التي يعرفها، والجهات متضادّه.. لكنه أوقفها عرضاً قرب العمارة التي يسكن أول شقّة أرضية فيها، علّق بوعي مُتباطئ في واجهة الباب ورقة: «أنا مُتعب احتاج إلى مساعدة». الطفرة الاقتصادية في البلد في ذروتها، السكن يتعذّر على طالبه، والاتصالات الهاتفيّة أقلّ بأضعاف عن درجة الطلب، كلّما يُعانيه المواطن من قحط «عدم الإمكانية» عاشه بالصدود المتكرر، وكان يسكن وحيداً.. إن لكل استقلالية حُرة ضرائبها.

- نوع من الغيبوبات التي تحدث نتيجة عدم تناول الدواء -، استغرقت يوماً إلا بضع ساعات..حيثما أقترب من الإفاقة «كان صديق هجرته يُعابثه بكلام على هيئة الشعر «يا امرأة من حليب العصافير» ويُضيف «وليس حليب البقر الذي لا يطير»، كان «زاهر» في حال مستفزّ بين راهن حالته، وكلام الصديق في شأنها، فيردد

بنزف المعاند الشاب..حين تكون معرفته بالحياة لا تقل عن ثورة الدماء بعروقه:

«لا تذكرهنّ لي.. خلقن رياحين لنا» !

نُقل من غرفة الحالات الطارئة ذات الأربعة أسرّة؛ إلى غرفة مستقلّة. زوجة صديقه المرضة تمنحه كامل رعايتها ووصاياها لزميلاتها، فيما بعد وجبة الغداء؛ تجيء و معها من البيت حساء العدس المهروس بلحم الدجاج المقدّد، وسلطة الخضار المنوّعة، وتقعد بالملعقة إلى جانبه.. يرفض الأكل من يدها؛ بدعوى أنها مُشفقة - يا زاهر.. يا مغزول.. كفى غزلة وترفّعاً في غير محلّه!!..

و..

عيناه مُعلّقتان بالباب: معها مودّة، ما لبث أن استغلّها لنزع أنبوب «القسطرة» المثبّت بالمثانة قبل الحين.

في الوقت الذي تسيح فيه حركة الأقدام؛ فتعود إلى سكينتها عند منتصف القيلولة.. يكون المرضى قد أكلوا وجبة الغداء، والأطباء قد سلّموا نوباتهم لمن ينوب جرياً وراء راحة الظّهر المطوطة إلى ما بعد صلاة العصر.. الأشياء تهدأ كخمود النحل من الأنين.. أبسط الحفيف يدبّ إلى المسامع بكل حفاوة..حتى أن المتصنّت ليسمع شخشخة مياه المجاري في الأدوار العليا، مرور المرضات قلّ بعد توزيع أدوية ما بعد الوجبة على المرضى،

وعلى أي حال..

فإن هذا الوقت السئم؛ حين يوزع النعاس بهدوئه وندرة حركته.. تبقى في أذهان بعض المرضى لعقات كالصداً، أو كبقبقة المراوح

السقفية، حيث تصبّ السماء جهد نيران صيفها، فتغدو الصدور معبأة بالسخام والرطوبة وقشور رائحة«اليود«الطافحة من ساحل البحر، ويكون لعجلات السيارات على الإسفلت المحترق طقيقاً شبيهاً بألعاب الأطفال النارية، والأشجار الجانبية على الطرقات؛ تهطع بخنوع كأنما رشّ على ورقها الرماد.

كل الأشياء الكائنة الحيّة، والجامدة في الخارج.. لا تفكّر سوى في غيوم وجبال وأودية من ثلج؛ يكسر لهاث الصيف الذائب كصهر النحاس.

كان «زاهر» قد تخلص من أنبوب «القسطرة»، ودخل الحمّام مرّتين لينفض بالماء قطرات الدم إثر نزع الأنبوب، وهذا مُؤشّر مقلق بالنزيف وبقاء الجراح في المثانة، وحين عمّ بدنه بالثوب الأبيض، وخلع سرواله الذي أحدث نزيفاً آخر برأس مخرج البول، وبالاحتكاك الخشن.. تطلّع على امتداد الممرين في اليسار واليمين؛ فلم تقع مناظره على أحد.. دسّ عمامته الرخوة في جيب ثوبه الجانبي و..

على مهل الواثق ؛ خرج لا يلتفت، وليس هناك تفسير لهيئته؛ سوى أنه مريض ينوي الخروج لمدّة وجيزة، حتى معصمه كان مداراً بشريط فيه بيانات الشخصية المريضة، واسم المستشفى بعلامته الفارقة،و رقم الملف والغرفة والجناح والدور الذي ينام فيه.

- «رايح على فين.. يا أخ»؟

- «مين..أنا»!.

- «أيوه..امّال ؛ أنا»!.

- «.............».

دخلت ممرضتان بسرير طويل ؛ إلى جانبيه علاّقتان.. إحداهما فارغة، والأخرى فوقها كيس دم، ومحلول ملحي كالماء «نور مال سلاين»، فانقطع السين والجيم، وانصرف الحارس.. يفتح نصف الباب الزجاجي المغلق، بوسع المساحة التي ضاقت قليلا بارتطام حواف السرير الجانبية، بينما كان شخير المريض المكمّم عالياً مُتقطعاً.

** ** **

حاذر ألا تلمحه زوجة صديقه المرضة؛ عبر صدفة ما لكنّه سلم.. وحيث تجاوز البوّابة في ذلك اللغط القصير.. وكان يضع يده داخل جيب يمينه؛ ليمنع الثوب عن احتكاكه برأس موقع انبوب «القسطرة».. رأى عدداً من بُقع الدم في واجهة الثوب، وكان الجرح لا يزال طازجاً.. على الرصيف الواسع النظيف.. كانت ممرضة الغرفة الأليفة واقفة وبيدها ملّف أصفر (لعلها ستأخذه إلى المبنى الأبيض المقابل.. يتبع للمستشفى)..سألته باستغراب:

- «رايح فين..يا ؛زاهر»؟!.

- «للمبنى الثاني»

يعني التابع للمستشفى، لا يدري كيف جاء الجواب، النظام الطبي عامة.. لايسمح للمريض الداخلي «المنوم» بالمراجعات أو التجوال بعيداً عن سريره؛ إلا بصحبة المرضة، أو أحد موظفي المستشفى الموكلين.. فكيف به وهو يقف الآن بين عينيّ ممرضته المباشرة، كل شئ يدعو للتساؤل والاستغراب، **(أظنهم لم يتعودوا**

على مريض يُفكّر في الهروب، فلو حدث ورغب مريض في الخروج وترك بقيّة مُدّته.. فإنه سيواجههم بذلك، ولن يحلفوا عليه بالطلاق.. سينصحونه جداً بإكمال المقام، العادة في مثل حالتك يا ابن المغزول.. بعد إنقاذك من مخاطر الغيبوبة السكريّة، أن تمتثل لما يراه طبيبك لمدّة قد لا تزيد على العشرة أيام، عبرها سيتم فحص الآثار المرافقة، وتنظيم مستوى السكر في الدم.. هي ليست ب «اختراع صاروخ» كما يُقال، لكنك يا محرر نفسك بالهروب من العلاج وإقامة المستشفى.. تتحايل لتهرب حين تعلم أن طبيبك لن يسمح لك بالخروج قبل تنفيذ المدّة).

الصدفة أيضاً حالفته؛ فممرضته لم تلتقط بُقع النزيف على الثوب، فلو حدث.. فإنه دون أية مساومة.. سيعود إلى غرفته، بصرف البال عن الخروج والدخول.

كيف تصدّق ممرضته؛ أنه يقصد مبنى المستشفى المقابل دون معرفتها مسبقاً ! ماذا يقول ؟.. قال إنه سيقابل خالته.. عمّته.. أُخته، أي قريبة، الممرضة مبدئياً لها معرفة بالتقاليد المشدّدة ؛ في العلاقة بين الجنسين.. التحفّظ فوق ما سمعته في حياتها من هذه الأمور.. لذا يستوجب أن تزيد، ففي بلدها.. ليس كالذي لا يتصوّره أحد في هذا البلد،و.. قضمت لسانها برهة ثم - والسيارات تمر أمامها دون ملاحظة خطوط المشاة؛ فيما يفصل بين المبنيين من مساحة الشارع - قالت:

- «خلّي بالك.. العربيّات».

- «ربّنا؛ يستر».

نظرت إلى واجهة المبنى.. كأن لا شيء يستحق أن يُقال.

داخله يتمنّى لو أنها مرقت..(لو أنّها قالت تعال نعبر الشارع سويّة)! خفّ مرور السيارات ؛ فانطلقت تحضن ملفّها الأصفر، الذي تمنّى أن يكون بدلاً منه، لم تلتفت جانباً ولا خلفاً.

كان «زاهر» يحتذي حذاء لدناً من البلاستيك، يستخدم عادة للحمّام.. الوجع في رأس الموقع يتقطّع بحدّة قطرات الدم، لكنه ليس بأوجع من سهر الليل في غرفة التنويم بالمستشفى.

أشار إلى سيّارة أجرة صفراء كلفح حرارة الظهر في صيف مرطّب.

سأل سائق السيّارة البدوي - كالعادة -:

- «إش اسمك يا..لخ..وين رايح»؟.

(هذا أول سلطة الكلام...ماذا يبغي من اسمي ومولدي وعمري)!

- «أنا زاهر، أبغي توصّلني؛ الدمام»

الطريق بين المدينتين يستنفذ خمسة عشر دقيقة وقتها.. والأجرة عرفية على حسبما يتّفق عليه السائق والراكب، لكنها لن تزيد عن عشر ريالات كحدّ أقصى.

لم يكن في جيب «زاهر» سوى خمسة ريالات، ولن يتفاوض في شأن الأسعار - كما هي عادته - سأل مريضنا عن كل شيء، ومحصّلة الركب؛ إن «زاهر» وقع في الإيجاس في أن هذا البدوي الذي جاء من أفق بعيد، إلى قاع المدنيّة؛ ليعمل بملابس لا تتجانس مع الصابون لأسابيع ؛ مع اشتداد الحرّ والرطوبة..أولئك الذين لا سكن لهم في غير سيّاراتهم، حتى الحلاقة،.. مرّة واحدة في كل

أسبوع، وفي جمعة بالتحديد، منذ الصباح لا يقتطع لنفسه راحة، يهدي بدنه «ليفة» وصابوناً وغياراً، ثم يتوكل على الخالق إلى دورات مياه المسجد.. هو تغرّب لكي يعمل، وسيكرّم شخصه براحة يوم لا يعمل فيه؛ مع اليوم.. يوم سياحي تنهلّ فيه مشاوير المقيمين أكثر من المواطنين، وعلى العموم..

فقد تحسّس الراكب، أنه وقع في مقعد سيارة لسائق بشارب أشعث من صوف الماعز، ومثلها في الخشونة والغزارة لحيته العميقة في حدود مستوى الشارب، بالغ جهده في تهذيب حدودها ومستوى امتدادها القصير، وبعينين حادتين؛ يزمّهما وهو ينظر إلى الطريق الممتد.. أحسّ أنه يودّ، برغبة استذلالية في المواقعة فراشاً كان أو لحافاً، ولو مع حمارٍ أجرب.. أليس بكائن حي تجري في عروقه الدماء !

غير أن زبونه المريض، وللمريض في مفهوم المجتمع حرمة.. كان «زاهر» يتوقى بهما في كثير من مواقف المراوغة، من يدري.. لعل الله يكتب لمرضاه الذين ابتلوا؛ مخرجاً من حيث لا يحتسبون، أو يُحاسبون، أو نقيض ما تظن بهم الظنون.

فكّر «زاهر» أن يوجّه نيّته إلى منزل ابن عمته، ثم ليسأل أيضاً عن عمّته التي لم يُقابلها لفترة طويلة.

قرب باب العمارة؛ أوقف السائق البدوي سيارته الأجرة، استأذنه «زاهر» في إحضار المبلغ في الداخل، الكلام واضح !.

لم يوافق.. قال كأنه واحد من العاطلين، والمفلسين الذين يخرجون طازجين من السجون والمستشفيات، وأضاف:

«لا حول ولا قوّة.. يابو فلان». كلام، والنهاية ؟!.

أشار عليه بالدخول معه، وخاف أن يكشف أمر الهروب، بل أمر دخول المستشفى ووضعه وحيداً بعيداً، وأشياء لا تسمن ولا تقيم أود المفلس.، وافق البدوي، وعلى حركة من غير حارك.. امتدت يده إلى مكان رأس أنبوب «القسطرة «الحساس ؛ ففزع مريضنا وخاف البدوي، ويبدو أنها مقصودة بغباء، لكنها كانت مخجلة مما دعا السائق إلى إعادة أسطوانة الحوقلة مُضيفاً «قطع الله إيد اللاش؛ يابو فلان».

بعد قليل اتجه «زاهر» إلى مسكن قريبه، فوجده واقفاً لحاء الباب، رجع حثيثاً في يده المبلغ.. ولم يجد سيارة البدوي!

** ** **

قلنا..

إن «زاهر» كان يسكن وحيداً، وهي رغبة اختيارية حُرّة.. ارتبطت ظروفها بعدد من المواصفات، كان آخرها عندما فارقه صديقه الذي يعمل في الجريدة بسبب التحاقه بالعمل في مكتب جريدة محليّة أيضاً، وبمميزات؛ كان أحدها توفير سكن قريب من المكتب مع المواصلات والهاتف والأسفار، وبقي صاحبنا في عمله بذات الجريدة الشرقيّة مُحرراً مُتعاوناً، أجرة البيت مناسبة، الجيران طيّبون، المكان شعبي وبعيد عن المد العمراني والأقارب القلائل، وهو يهرب من الوصايا والمحاذير والمتابعات و«السين»و«الجيم» الذي يجب فيه مراعاة التقليد على نفقة الصحة وملاحقتها، لم يكن بالبيت هاتف، ولا توجد أرقام على الشوارع أو المنازل، كحال البيوت المبنيّة من قرميد الأسمنت ومخلّفات الطوب والطين والخشب، وجذوع النخل. (**حارة الكهرباء، ونصيبها**

من الكهرباء؛ نصيب الأرنب. يا لعجب المتناقضات والصدف.. هكذا كان يردد «زاهر»، وكانت قدرته على الطبخ وتحضير الطعام معدومة، ولم يكن في البيت مطبخ، ولا كهرباء كافية، ولا مكيّف لا اتقاء الرطوبة والحرارة.. لكنه كان أليفاً ودافئاً وقت الشتاء).

غادر صاحبنا منزل ابن عمته، وقضى واجباً تأجّل مرات طويلة لم ير فيه عمته.. إلى بيته.. حيث أوصله في سيارته، وكان الوقت حسبما أعلن بصوت المؤذن في اقتراب الليل؛ صلاة المغرب.

احتلّه شعور بالانطلاق، يكاد به أن يحتضن العالم، حيث بدت الأشياء أليفة ولذيذة، وكأنما غاب عنها دهراً في عالم غريب موحش.

إن شدة ما يخافه أن يعرف بوجوده جاره، الذي تقع شقته على مسافة خطوات من الشارع المقابل، وهو الوحيد في هذه الحارة الذي يعلم حالته الصحية ومفارقات حياته أحياناً، كما أنه المنقذ الأول الذي صادفه وقت إذ نقل إلى المستشفى حيث تعمل زوجته، وعنوان «زاهر» المسجّل بملفه داخل المستشفى وهاتفه كان ذات عنوان الجار في العمل.

فوجئ الجار في مكان العمل؛ في صباح اليوم بهاتف من زوجته بالمستشفى.. تُحيطه فيه بأن زاهر قد خرج من المستشفى دون علم المسؤولين، وأنهم اعتبروا ذلك هروباً، حيث لم يجدوا بملفه ورقة خروج في نوبة البارحة، موقّعة من الطبيب الذي أكد عدم علمه وموافقته؛ فكانوا مُضطرين لإبلاغ البوليس.

الفصل الرابع

الغرفة الفلّينية الجدران والحواف، تزداد ضيقاً، وكأن هواء خلف جلدها الأبيض البرتقالي.. يضغط من الداخل؛ أو كأن سائلاً مركباً بالملح يزحف بقوة تراكم الزمن؛ نحو إبراز واجهتها الداخلية من كل جانب.

لقد تشبّع الفلّين بالضجر والتكرارية؛ وهو يحيط بسرير المريض، الدواليب الخشبية الغامقة (ذات الهيئة الكلاسيكية).. باب الحمام المفتوح؛ والمنفرج أحياناً، خزانة الملابس المحفورة في موازاة الباب، الساعة الدائرية البيضاء.. الكنبة العرجاء (تصلح بعد فكّ إنطواءاتها لتكون سريراً للمرافق).. فتحة النافذة المستطيلة ذات الزجاج العاكس لصمت النخلة المقاربة.. التلفزيون البارز في الواجهة ببرامج قناتيه «الغصب» التي لا تُثير مُشاهداً ولا تُضيف إلى تأمّله سوى الملالة والانقباض.. جهاز الراديو الصغير والمحدود المحطات، البلاطات المربعة الكبيرة، وهي تحمل كل الموزع فوقها، وتحمل الزهور المتفتحة؛ تنتظر الصخور فاليباس، فالسقوط.

في الركن المقابل لعلامة اتجاه القبلة المرسوم على السقف، الجرائد والمجلات الشبه مرتبة قرب النافذة.

الغرفة بمحتوياتها القليلة.. تنفث في هدوء قاتل؛ الملل والاعتيادية المتوالدة.. الباب يُفتحُ بطرقات ليّنة بركب الأصابع، أو يفتح فجأة.. فيجعل المريض بكامل بدنه ؛ يتحوّل إلى عينين تنقادان باتجاهه، فلعل الداخل إلى هذا الصندوق الكبير؛ يحمل نبأً أو يحمل دواء، أو يحمل ورقة، أو يأتي منه طبيب، أو زائر في غير وقته (إن

الأشياء التي تأتي دون توقّع، أو مقدمات.. يكون لها طعم الهدية، ورائحة الاستنفار، ولون الثوب الجديد)، ألا يحدث أن يوخز جرس الهاتف (الجامد كقطعة رماد صلبة..).. أن يستفز العصب والإيقاظ واستدعاء اليد لمعرفة ما بعد الرنين !.

الباب.. ليس وحده الذي يستأثر بالنبأ، حتى ولو كان من داخل غرفة المراقبة، أو مكان المتابعة الدقيقة، الهاتف يوصل أغلب المرسلات.

(إذا كان العالم في الخارج - بافتراض علمي مثالي - يجري في حركة لا تهدأ.. فما الذي يثبت للمريض المنتظر؛ أنه سيكون جديداً، أو ملفتاً، أو أنه محسوب بصورة غير حيوية وفعّالة ونشطة وإنسانية؛ ضمن الإيقاعات المتقاطعة والمتآلفة والمتعاقبة أو المنضبطة أحياناً، قد يكون أو لا يكون.. غير أن هذه الافتراضية لابد وأن يكون لها صفة غير موصوفة ببال المريض القابع تحت ركام الوقت المتهافت من ساعة الكون؛ حيث تقتات ختماً من أرصدة العمر.. عمر أي جسم له عمر افتراضي.. في كل ثانية تصرع ثانيتها؛ إنما هي تطل من خلال حافة سور ينقسم بين عالمين: الولادة، الموت، اللحظة حينما نعدّ بصوت يبلغ السمع «واحد»).

بهذه النظرة الأفلاطونية..كان ل «زاهر» مثاليته الاعتبارية للزمن.. مثالية أفلاطونية؛ تفترض أن جوهر قيمة الزمن تذوب في تسديد قيمة أخلاقية مفترضة، حتى وإن لم يكن ذلك ضمن نشاط التكرار العقلي للكائن البشري.

لقد كان «زاهر» متصالحاً بآلامه ومحتويات مجابهته للمرض، لأنه لم يجعل منه قضيّته المصيريّة، بل؛ ولا قضيّته أساساً، ربما بسبب أن

الآخرين يخطئون في نظرتهم إليه؛ إذا ما قيموه بمقاييس المرض.

نعم..

إنهم يخطئون.. لأنهم يعتقدون أن المرض هو الصفة القابلة لئلا تتضامن مع أي إنجاز حياتي (حتى ولو كان تقييمهم غير ما يراه المريض.. لانهم مطبوعون بهذا المفهوم الإيجازي الجاهز).

لم يكن صاحبنا سعيداً بهذه الإيجازية المفرغة من دلالتها الموضوعية، ليست تجاهه فقط، وإنما تجاه المرض عموماً، فهم يعلمون علم اليقين؛ بأن النار طاقة اشتعالية لها صفة فاعلية محددة اسمها «الاحتراق»، وأن الاحتراق يقوم على استهلاك عدّة عناصر تكوّن النار، وأن النار تفقد تفاعلها بفقدان العناصر أو أحدها.

نعم..

لكنهم قد ينسون أن النار ليست من ذات الطاقة المتجدّدة..

وأن ذات المفهوم ينطبق على مفهوم المرض؛ إذا كانوا ينظرون إليه بمنظور الإيجاز «مريض وكفى» ومرضه مزمن، وهذا الإزمان محدود بلحظة موت سريعة الافتراض، والانطفاء، والاستعداد، والأكثر توقعاً للخمود، لأنها أقرب إلى عدم الفاعلية؛ المتوفرة لديهم كأصحّاء، والتي تجعلهم لا ينثنون عن القيام في أي مجال حركي «طاقوي».. فقط تنقصهم الإمكانية النفسية والتجريبية!.

هذا ليس صحيحاً، ولسبب واهن هو:

إنهم لم يتساءلوا (لماذا نحن أصحاء)، حتى ولو كان جواب المتسائل؛ بأن الصحة تدخل في خاميّة الطبيعي، لأن الطبيعة لا تقوم بدون التفاعل مع عناصرها، اي؛ قوتها وضعفها واختلاف أبيضها

عن أسودها. وإلا لاعتبرنا شكل الوردة مرضاً، ولون السماء مريض هو الآخر، وهكذا.

ولكن..

يا «زاهر»، هل أنت في هذه المفهومية.. أم أنت لها ؟!.

هل أنت..حامل لهذه الرسالة الفلسفية المرضية؛ كي تعرض مفهومك التنظيري لها، دون أن توظّف، أو تتوظّف داخل منمنمات تركيبها اللفظي.. أي؛ هل أنت تحملها لتوصلها عبر ذهنيّتك إلى الذوات الأخرى، وذاتك أنت أولاً، وتكون خارج محتواها، بمعنى أنك مُبلّغ بما فيها ومؤمن بها، لكنك لا تعمل بها ؟!.

«زاهر» لا يجزم بأنها كافية (الرسالة) لاستيعاب ما يرغب في فهمه العميق لجوهر أكبر وأوسع لما جاءت به، لأنها احتوت على تبرير القهر الصحي، أو لعلها حوت في ثنياتها بعض العزاء (الذي يرضيه بهما) ويحيل عنه هم التبرير الذي قد يحتاجه؛ ليثبت للطرف الآخر - الناس - بأنه مريض.. لكنه يعيش متصالحاً مع بلائه الذي لا يستطيع نفيه أو طرده خارج خارطة معيشته، ولأنه أيضاً بأي هيئة؛ لا يرحّب به، أو يرضى، أو يدعي قدرته على احتمال نفقة إقامته الجبريّة المؤبدة (فهو ليس ضيفاً)، كذلك فإن الرسالة عينها؛ مع إنها عزائية موضوعية، فيما لو وجدها تعبّر عن عقيدة المرض، ومع أنها لم تتكىء على مثالية الشجاعة أو الصبر، أو جلادة الاحتمال، أو كلها جميعاً، وتحاول أن تعتمد على العلمية المسلمة كحاصل غير اختياري..

لكنه يرى أن مسألة المرض الأفلاطونية والموضوعية أيضاً تختلف باختلاف المريض؛ فالمريض هو الوعاء، وهو الساحة القتالية التي يقوم فيها بدور المدافع ضد المهاجم، المستعمر الذي يريد أن يبيد

حدود الخارطة من الجغرافيا، والصناعة والزراعة ومراكز المعلومات، وأجهزة الفرز والتصفية، ومعامل التقنية، والمواصلات، وخطوط الاتصال، ومجاري السقي وحاملات الغذاء، ويريد أن يعبث بكل المؤسسات الجسدية؛ زاحفاً أو قادماً من مراكز التخطيط والتوظيف والقيادة.. إنه لا استراتيجية له ولا هدف سوى العبث والتدمير والتعطيل والإبادة.

المرض المزمن لا يمازح ولا يُصالح ولا يُسالم أو يؤمن سلامه، ولا يقبل بفرض الضريبة ليبقى عن فريسته بعيداً.. لا يقبل أي ممازحة أو مغالطة أو مخادعة، أو طلب إجازة، أو ظرف طارئ أو.. أو...

يمكن أن يبسط نفوذه بحق المواطنة اللاشرعية.. على أن يبقى حامله على قلق محتاط متحفز خائف، إنه يخاف خوف «ابن عرس» من جناح الصقر؛ إذا كان مواطنه متحفزاً يقظاً، وعلى ألا يفتح له أبواب الخوف والخواء والسيطرة والاستسلام.. هذا النوع من المرض لا تؤمن له عاقبة، يفتح على صاحبة في كل مناسبة ثغره، فيرسل المريض كل جيوشه الدفاعية، وينشغل بثغر لينسى آخر، أو يستهين به.. ويقضي على كل العساكر ليبطش بطشته الشرسة المؤدية إلى المدافعة.

كان «زاهر» يعلم كل مراوغات المرض المزمن، ويعرف كيف يروضه،وكيف يقيم معه تصالحاً دون أن يمدّ له يده، ولا يستعين دائماً بالمعونات الدوائية فقط بل أيضاً بالتقوية النفسية، التي لا يمكن لواصف علاج نفسي أن يصفها، لأن ترياقها يؤخذ من ذات المصاب، ولا يمكن معرفته من قبل الواصف، وإذا نجحت بعض الوصفات.. فإنها لا تستطيع أن تحصل على شهادات المنشأ

والتصدير و مواصفات أو تراكيب الجزئيات الخامة، وإذا حدث وان تسرّبت في طقس اجتماعي يتعامل بالغش والتزوير والتهريب و الواسطات و المحسوبية؛ فإنه لا يفيد بشيء أو سرعان ما يفقد صلاحيّته، فلا ثلاجات الحفظ ولا الدفء ولا الأفران؛ يساعد في حفظه.

الترياق الواحد الوحيد ؛ لا ينفع غير واحد.. هو صاحبه الذي فرمته التجربة، وعصرته معصرة الآلام والمعاناة، وقاسى العيون والألسن، واستخدام كل منظفات الآذان، لكي يصب مكانها لوائح «ممنوع الدخول» بكل اللغات التي يتكلّم بها ويتفاهم المجتمع بطبقاته ومفاهيمها.

المرض المزمن يخاف (ولا يهرب) من الابتسامة وحب الناس والحياة، يخاف من الذين يتعاملون معه بالعلمية، ويكافحونه بعدم التصديق للشائعات، والدعايات الرائجة.

إنه يبقى معتقلاً لدى حامله لا معتقلاً لضعفه وتأثيرات الأقوال والتسليم.

«زاهر» لا يجري وراء «الحبّة السوداء» أو البيضاء أو المباركة، أو الحبّة الخربزيّة، إلا من باب الدراية العلميّة على ألا يهوي في غرامها ناسياً عقوده وصكوك تخرّجه بعد الدراسات الطويلة.. لقد جرّبها وانفق عليها رصيداً من مستقبله الاحتياطي بعدها.

** ** **

(ذات عام..

أُخذ إلى طبيب من «إفريقيا «بالمدينة الساحلية الغربية.. شيع أنه

عالج بالوصف والقراءات؛ مريضاً من الطبقة الأولى كان مصاباً بمثل مرضه ومُقعداً، فبارك المبارك وأخرج على يده علّة المعاني.. فمنحه العليل المشافى إقامة في منزل عريض(يستقبل مرضاه فيه، ويسكن مفرداً)!.

جاء إليه مريضنا.. فأقعده على الأرض جانبه، تطلّع فيه فقرأ كل شعرة فيه حتى حاجبيه، ثم نفخ في يديه، ومسح كفيه ببعضهما ثم رفع صوته ب «الله اكبر ولا اله إلا ا لله»، واقترب منه قائلاً:

«نحن لا نقطع بالشفاء، ولا نضمن دواء

ما نحن إلا كسحاب رآه الرائي فدعا الله، فساقه إليه، فإما أن يمطر فيسقى منه، أو يذهب فلا يناله منه شيء».

أعجب القول «زاهر»، دفع له من المال ما طلب، وطلب أيضاً أن يعوده بعد جمعة.. متكلاً نابذا ضياع الأمل وما نحن إلا كمن وصْفه الدوائي اعتمد على طبخ نوى التمر وشرب مائه..أربعة أكواب يومياً.. يُصفّى بعد طبخه، ويُضاف إليه ما يقع من بودرة أعطاها للمريض.. من لمسة ما بين الإبهام والسبّابة اليمين، ثم يشرب على بركة الله.

لقد ولّى الأكاسرة، و ارتد أمام تقدّم الإنسان عصر السادة...ومنهم المفكرون القدامى الذين كانوا يعيدون النظر في: أن للغيوم آلهة، وللحسن آلهة، وللمطر آلهة.

احتاج ذلك منه أربعة وعشرون كوباً.. شربها مع حُثالة ما يوازي أربعة(كجم) من(عجم) التمر «النوى»، وقد بذل فيه مع أطفال البيت الخمسة وأربعة من أولاد وبنات الجيران.. بذلوا في عصاري الأيام السبعة جهداً، بين أطراف ساحات الدور، ومواضع تجميع الرماد خلف الدور،

والطرقات القريبة، حيث مز ابل الكلاب العامة؛ بعد ما تجد النوى المُتناثر الحلو قرب البيوت؛ فتبتلعه ويخرج سليماً منها؛ مع عوامل الوقت يغدو جافاً بارزاً، وبعد الغسل بالماء يُهيأ للطبخ.

غير أن الجهود المنفقة على خُلاصة هذا الوصف.. لم تجعل المريض صحيحاً ولا بعض صحيح ولا شبهه.

رأوا أن الحاجة تدعوا لمراجعة ثانية... ليست الصعوبة في العودة، وإنما الكربة العظمى في صدر «زاهر»، فهو لا يستطيع تصوّر المُداوي الأفريقي(كلّه يلمع كأنه مدهون بالزيت.. صقيل جلده ويلمع كلمعان بطون بعض السمك من الخارج، ويبدو في لمعانه؛ أنه قد نفخ كما تُنفخ(«عكّة») قربة السمن الصغيرة بلونها السمراوي اللامع.. يكاد يتقصد بالانفراط من أي موضع.

لون لباسه الوردي الفاتح؛ مع بشرته السمراء اللامعة.. يكون هذا المداوي غريباً مُخيفاً موحشاً في نظر «زاهر» الذي يرى لأول مرّة إنساناً بهذه الصورة، ولم يستطع أن ينظر في عينيه الكرويتين اللتين يحفّ وسطهما مساحة بلون رماد أزرق!.

لكنه..

لم يكن من المداوين السابقين في عمر علاجه.. قال؛ إن علاجه قد لا ينفع، وكان بإمكانه تزويق علاجاته، وطلب ثمن أكبر.

ولم يلجأ للبصاق، أو غسل، أو دهن، أو بخّ الهواء، أو غيره على المريض.

لم يحدّث زائريه بنجاحاته السابقة، خاصة مع شخصية.. لا تحتاج لتعريف أمام الناس.

على أي لمعان كان..

فإن مريضنا ؛ سابقاً مسبقاً.. يحمل في نفسه رفضاً فطرياً لكل المداوين الذين لا يستخدمون ميزان الحرارة، وجهاز ضغط الدم، والسماعة، وزادته وصفة وعلاجات الفقيه القروي البعيد، وقت إذ بصق في وجهه؛ فاستغاظ منه،.. من أين جاءه الجن، أم إنهم جاءوه لأنه لم يمتثل لبصقته!.

** ** **

رفض «زاهر» العودة كرّة ثانية ؛ إلى المداوي الأفريقي..

وحدثت مُشادة في البيت؛ بين رافض وموافق، وكلّها لم تخل من اتهام المريض؛ بأنه يتذمر من البحث عن صحّته، وأنه راغب في الإهمال والنوم(ومن يدري لعله رافض؛ لأنه لم يشرب الدواء – عصير النوى المطبوخ –)، و بقي في عقول البعض.. ممن يتهمه بعدم الصبر على التداوي في طفولته؛ حتى اليوم، سابغين على كرم تهمتهم.. أنه لا يُحب أكل المُرّ)!.

** ** **

أيام ليس لها لون أو طعم، أو معنى محدّد فيما سبق من أيام «زاهر» العلاجية، وصفها بالفلّينيّة لعدم حصوله على ملمس آخر يحفظ عبره الحالة.

إنه لا يريد شيئاً يقتنيه، وليست لديه أمنية فوق ظهر السور الذي يقع بينه، وبين ظرفه الصحي المزمن..

تعلّم ألا يشغل باله بهذا الوضع.

ماذا تريد يا.. زاهر؟!.

تساؤل فليّني أيضاً، لأن الجائع لن يحلم بغير إشباع بطنه.. إنه ليس حزيناً ولا خائفاً.

القهر كله يتجمّع في بؤرة صغيرة وتقليدية وكبيرة المعنى، بشرط ألا ننظر إليها كمبرر تعجيزي، أو حائطٍ تُلزق عليه صور المنتجين المرشحين ؛ مثلما قال الشاعر:

«ألقاه في اليم مكتوفاً..»

في هذه الحالة..لا يعنيه «إياك» ولا أخواتها.. يعنيه أنه في حالات الغربة الداخليّة الموحشة، أن بداخل كل إنسان قوى رهيبة؛ لا يكتشفها إلا عند حصار الحالة التي لم يكن يتوقعها.. فأية أسطورة تلك.

** ** **

قلنا..

إن «زاهر» لا زال يقضي أيامه وتقضيه على بياض السرير؛ في فترة جديدة تختلف عن كل أصناف الآلام التي مر بها من قبل، وضمن حوض زمني تمرغ في قصباته بين حال وحال؛ لكنه لم يحدث وأن تعارك في مثل هذا الصنف الذي يعيشه الآن..

الآن ؛ يفقد رجله: لقد اجتزّت اليمنى وقذف بها في كيس المهملات، في مكان تجمع فيه مخلّفات الورق، وبقايا الطعام، وحفاظات طمث النساء، وكمّامات التمريض، وأعقاب السجائر.. أُلقيت رجل إنسان؛ حملته منذ أربعين عاماً، وجالت به حيث كان يوجهها، وفتكت بأنواع من الأحذية والصنادل والخفاف، وطاعته

حيثما أمر في طرقات الجبال والسهول، وعلى الأرصفة، ورقص بها ولعب؛ ثم.. كانت في مصيرها الأبدي.. أن رمي بها مع الزبائل التي تجمع كالطرود السوداء الكبيرة، وتحمل في صندوق سيارة البلدية لتحرق، لها اليوم ما كان لجثة «نهرو» الهند: المحرقة !، ربما شرُفت بهذا الإكليل النهائي، مثلما نال بنصر يده اليسرى ذات يوم.

ما أصعب على الإنسان، أن يتنازل عن أجزاء من جسده دون مبرر يرضى عنه !

ما أصعب أن يرى أطرافه تفقد أمام عينه.

في حفرة وعيه وكامل إحساسه.

ولكن..

لم تنتهك في مناخ سلمي، وبطريقه ناعمة هادئة.. من فوق سرير أبيض، إلى طاولة الزنك المستطيلة بغرفة الجراحة، لم يفقدها في حادثة ولا معركة، ولا موقف إنساني يستوجب التضحية، فالأمر نفّذ بأسلوب لا يد له فيه ولا اختيار أو مداراة، وكم من الأحزان يفقدها أصحابها.. مرضى وجنود وأحداث آمنين تلقى على رؤوسهم القذائف، أو تصوّبهم الشظايا، أو تذهب طوطماً لطرق السيارات والقطارات.

و..

دخل طبيب الأوعية الدموية.. ليس بيده مشرط ولا سكين جراحة ولا قياس نبض، قال ل «زاهر» بعد كشف قصير على مكان البتر؛ إن عليه ألا ينيخ باقي رجله في الراحة طول الوقت، فالتمرين خير ما يمكن تعويدها عليه، لكي تتجاوب مع الطرف الصناعي، أيام..

ويكتب له خروجاً من المستشفى.

(ما عاد يهتمّ مريضنا بالخروج أو الدخول، سيخرج بلا قدم، ولمدّة قد تصل إلى ستة أشهر.. المهم.. هناك تصوّر جميل فالبديل جاهز ،وإمكانية موازنة الرجل الصحيحة بأخرى غير ذات حسّ؛ متوفّرة، وهذا يعني أن فرصة التحرّك ممكنة وشبه طبيعية).

سأل المريض طبيبه:

- كم أحتاج من الوقت؛ حتى يتم تركيب الطرف؟

- في العادة.. ليس قبل ثلاثة أشهر.

- وكيف أستطيع الحركة الضرورية ؟

- فهمت.. سنعطيك مساعداً من المعدن الخفيف.. تتكئ عليه بيديك.

- وهل العادة الطبية ؛ في الثلاثة أشهر ؛

لكنه استذكر شيئاً جوهرياً.. يمد إليه يده كلّما وقع في أمر صحي جديد: أن الإنسان لا يقهره شيء، وأنه يكون قد تهيأ لمرحلة تبرز فيها قواه التي لم يكن ليدرك فجأة تحمّلها، ثم إذا به يراها في قبضة تحكّمه وإرادته، وأنها سهلة أمام تغلّبه عليها، حتى ولو كانت أصعب من الخيال.

(كان «زاهر» يقعد مانحاً ظهره متكأ الكرسي الرمادي العريض، الكرسي يتحرك من كل مفاصله؛ حسب ضواغط صغيرة محفورة في مسند اليد.

ذراعه اليمين تمتد كقنطرة صغيرة تشبه رقبة مُهرة.

توصل من البدن على ماكينة الغسيل الدموي «الديلزة»، فكانت تمتصّ دمه جرعة بعد جرعة.. تمضمضه؛ ثم تفك عناصره وتنقية من شوائب السموم والسوائل الزائدة عن الحاجة، وكانت الحالة الديلزية؛ بعد ساعة من البدء.. تدخله الغثيان والدوار، ثم انخفاض الضغط، الذي يجعل صاحبنا مُتأرجحاً بين الحسّ بطرف الحياة؛ وبين التهيؤ الفطري لخوف شديد من كل الأشياء المحيطة، فيزداد وقتما يصبح أحد المرضى المتديلزين: «الحقوني.. الموت؛ الموت».

لم يكن ذلك المريض ليحتمل الحالة، مريضنا يصمت لا يتكلم.. لا يتأوه، يستدعي الممرضة بإشارة مهذبة؛ فتفهم أن الدوار والغثيان يحتلاّن صدغيه وحشاه، و عندما تفتح صمّام المحلول الملحي المخفّف.. تأخذ حالته في العودة إلى الطبيعة؛ بارتجاع سلحفائي..

عندما يزداد صراخ المريض الجار.. تكون الممرضة(الممرضة الواحدة ترعى ثلاثة مرضى)، قد أدت ما تتطلبه الحالة من إنقاذ... المريض يصرخ مستغيثاً، فاستنزاف السوائل من جسمه؛ جعل عضلاته جميعها تشدّ أقوى عنفها.. يخاف ويصرخ.. يستغيث بكل الأدعية الإلهية التي يعرفها.. ثم ينخرط في البكاء، ولم يكن البكاء لائقاً بهذا الأب الذي يقطر النقاء أبيضاً من فوديه، ... تمنى «زاهر» لو يمنحه قدراً من تحمله وصمته.. غير أن القدرات في مثل هذه الأحوال لا تمنح ولا تعار، وعندما يهدأ قليلاً، وينقطع وحيداً تحت الغطاء.. تهزّه رجفة تشبه ريش مروحة كبيرة بقاعدة غير مثبّتة، ... بدنه لا يهدأ من الإحساس بالبرد المثلج، لقد جنحت مصفيات الآلة الدابغة.. فأخذت في خياشيمها؛ كريّات الدم الحمراء ونصيباً من الصفائح.

لم يكن مريضنا يسلّم أمره للألم، فهو يحلم بلحظة ينتهي فيه وقت

الديلزة بعد أربع ساعات من البدء؛:

تألم.. ليس مهماً.. بعد وقت ستتخلّص، وتعود إلى البيت خفيفاً سعيداً.. وإن عدت متعباً؛ فهو ضريبة للحظات جامحة.

يا الله.. كم أنت ضعيف جداً.. العالم كله مزروع فوق ضلوعك، وأعشاب الحياة تقطر من اخضرار أصابعك على الورق.

يا الله..

وجهها الكمثري العريض يُدفئ ذاكرتك، وصوتها الحميم يؤلّف مسرّتك، ويبعث النشوة في طاقتك..

ستسأل عنك الحياة والأمانة وحب الناس.

الزمان يمنحك قدراً من ردائه.. تتمنى فيه لو كنت بليداً تجهل ما لا يهتم به عامة القوم.. فتغدو معصوراً مضغوطاً، ترد.. ترثي بكاءك على الأرض وأنت مريض..

الله.. لو أن المرض كان رجلاً، أو خشباً، أو دابة، أو هواء.. لقتلته، ومثّلت به أمام مشغوفي العالم؛ الذين لا خيار لهم.. يا رب.)

هذه الطفلة اسمها «هيام»، عمرها: سنتان ونصف، ببنصرها خاتم كاستدارة عين الحمام؛ من معدن برّاق، وفي صدرها سلسلة تستقرّ بآية «الكرسي» تدلّت من رقبتها.. تبكي «هيام» عندما يحملها أبوها على كتفه فتغرز عينيها في شعر رأسه وتعبث بنظرها؛ في المقاعد المتجاورة.. ترى أنابيب كثيرة بداخلها دماء.. تخاف؛ مقعدها اليوم هناك.

تنثر الممرضة ضحكات خفيفة كالحلوى على ذراعها الصغير،

وتغرز إبرتها (هل يكذب الناس في ضحكاتهم.. أنا لا أصدّق أحداً.. كلهم يؤلمونني ويضحكون) تقول الطفلة «هيام» في داخلها.

تبكي وتستعطف أباها الهادئ.. «ذلحين.. ذلحين؛ حبيبتي.. طيب؛ حاضر.. باقي شويّه «يقولها مـرّات بعدد نشيج ماكينة الديلزة.. لا يقول كلاماً غيره،

(بابا.. قاسي؛ لا يرحمني).

يا....

تعال هنا.. بقرب هذه الضحيّة،

إنك؛ ولو كان كبدك من أبيات الطحالب؛ لن تقبل!

الوريد هنا.. يا أقرب.

قسماً.. لم تجن هذه الطفلة ذنباً.. سوى أنها تبولت في ملابسها من الخوف.

«ولاك.. شو يا.. إنته ما بتسمع»)؟!

** ** **

في الغرفة الفلّينيّة.. يعلن مكبّر الصوت:

«أرجو الانتباه..

على الأخـوة الـزوار؛ مغادرة المستشفى.. من أجل راحة المرضى.. فوقت الزيارة؛ قد انتهى».

يترك الزوار ابتساماتهم وأكتافهم، وضربات الباب المتأرجحة ويخرجون.

الجدول العلاجي الثالث يبدأ بعد قليل: يتهيأ «زاهر»، يستنفر شرايينه وبلاعمه، يثني ركبته الخفيفة دون ساق وقدم.. تحتك بالغطاء تدويرة الجرح؛ فيعيدها بهدوء.. تشنّجت أعصاب الفخذ ورفع المفصل.. اشتد كسيور الحذاء، فقرات الظهر لم يعد بينها ما يمرّنها على الحركة؛ سلسلة تحمل صخرة تسدّ ما بين العينين حتى الأفق.. حتى ما فوق الحاجبين؛ لا تنثني.. لا تتحرّك حلقاتها، صوت مكبر الصوت يعلن مرة أخرى: «أرجو الانتباه..على الاخوة الزوّار...».

** ** **

«سليك بن سلكة» إمام الصعاليك، ركب جواده حافياً، واستيقن أن جردة سيفه مطبقة بين شفتي الجراب، وأن «بيض الهند» لا تقطع في غمدها، ولا يبتسم لمعانها وهي تحت خطف البرق، وأن البرق لا يبرق ضوءه في وجه الصحاري إلا إذا صعق رعده؛ وأرعد في الآذان، واهتزّت له القلوب الرتيبة تحت وقاء الضلوع، وأن الحبّة المطمورة تحت جلد الأرض تستفيق إذا دقّت الرعدة واصطك بحاف غمامها السنان.. أن تُهبّ الرياحات المرطّبة قرب الشواطئ البحريّة، شواطئ مظلمة؛ تفرز الخوف من المجهول، وليس لشاطئ البحر القلزمي من تفاسير الغياهب؛ غير مساكن ذرية الشيطان الذي يستبيح رداء الأرض.. ونفسك مطيّة الصلافة والنزق البطولي، فكان أن صدّق بأن بطن القدم التي لا تشوى بلهب الشموس على جلافة الرمل.. لا يمكن أن تقوى على الإغارة؛ فتأخذ بأنفة الزاهد من الأغنياء، وتنثره على الفقراء والعبيد والأسرى والمقعدين تحت بيوت الشعر، فها أن ابن بيداء الفارس يرمم بماء البحر المالح ساقه المبتورة في الحرب.. يهدر بصوت يحسبه الغافل بعيراً، يتأفف على قوم أضاعهم التغزّل في حسان

العرب الفاتنات، وسكبوا غلالة شعرهم بين أحداث الأطلال؛ فنسوا أن جرحى الحرب لم يثخنوا بالطعان من أجل ريبة في الحق، أو شك في سلام يقطعه محب الأمان على عشيرته، ويبني فوقه بالأكف عهود عدم الاعتداء، وما الاعتداء إلا طبع يسلكه الأعداء، فإن كان العدو هروباً.. فإن «ابن بيداء» لا يمد يده للنفقة المُشفقة، ولكن «ابن سلكة» عزيز يرتّق من أموال وخلال غاراته وجوه المستحين الكرماء ممن وهبوا أطراف أجسادهم فداء للأعراض والأطفال والعجز، ممن لا يقوون على الزحف إلى جبين المعركة، وليس النائم في حجر محبوبته ساعة نزول الإبل في شهرها القمري؛ أقل خنعة وخسّة من التولي والهروب.

بنى القوم مقابر شهداءهم في الحروب، ورحلوا إلى موقع ينمو فيه الكلأ.. وتتوالد النعم، نسوها ومضوا إلى حيث يؤمنون اللبن والتمر وصوف البهيمة، ورشا الحبال ووبر بيوت الشعْر والخيام المكبوبة على ساكنيها.. قالوا الفلاة لنا، والسماء لحافنا، قالوا على امتداد.. بصر «زرقاء اليمامة» بوسع اللعنة من الشام إلى اليمن يحدّنا.. لا مُنازع ولا مُغالب، ولا مُعتد ،ولا مُعاد، لا سالب أو مسلوب، ولا قاطع طريق.. أمنوا غدر العدو حين تمسي كلاب الحراسة بلا نُباح، وما دروا أن العشائر الغريبة تنام وفي حلوقها وصايا غوابر الزمان، لأن نامت أعين الجبناء والهالكين في رخاء النعم؛ لا تنام عينك يا «سليك» وأنت الواهب بخير سيفك ومغيرات صبحك وقادحات أمرك لجوعى الناس ومنهوبيّ الطعام، وأسرى الحرب.

** ** **

كان على «زاهر» الآن أن يقبض طرفه المبتور، ويلملم ذاكرته المبددة بين الرمل والبحر، وأن يجمع مسافة الأرض في كفّه

المبسوطة كالرقعة؛ داخل شحوب الغرفة الفلّينيّة.. يفتح عيناً ويغمض أختها كي لا تتحرّك إحدى أصابعه؛ فيصيح الجهاز بأن خللاً يمنع سريان الدواء في الشريان،... الليل في نظام الأدوية المجدولة بنظام الساعات؛ لا يعرف أن المريض يناقل أوسان النوم بين عينيه والغفوات في احمرار ما تحت جفنيه لرغبة أو توجّس أو سهاد أو منام.. النوم يغدو واجباً ثقيلاً لا بد من القيام به أحياناً للمحاولة في توازن الليل والنهار، وليس لاستعادة بيولوجية البدن.. لا؛ وإنما للخروج من نمطية وجبات الطعام و روتين الدواء.. لم يعد لاعتيادية النوع العلاجي اعتبار معرفي ثابت.. الأدوية في غالبها سائلة مركبة تصل للبدن عن طريق الوخز والحقن.

(«زاهر» ؛ إنك حيٌّ، تنبض بالحياة وبالجمال؛ والحب، لا يغيب عن أفكارك؛ أن الأرض تدور، وأن الناس يتحركون بمشاعر وتصورات وأحلام أكبر من أجسادهم.. وربما ضاقت الأرض بوجهيها عن استيعاب حلم وطموح البشر، فالتقدم دائماً؛ غاية الطموحين، وهو العنوان الذي لا يحده مكان، لذلك لا تحزن..

لا تحزن، فلن يكون حرصك وطموحك المعلّق بانتصار الإنسان في كرامته ونبله وحريّته وعدله؛ نقطة تقف عند تنفسك ورتابة نبضك، يجهل من يظن أن الإنسان مجزأ، وأن المرض إطار حارس ضخم ديكتاتوري القسمات.. يقمع أية محاولة للنفاذ أو التفكير أو الحلم؛ إلى حد تجزئة الذاكرة الإنسانية إلى جزر متباعدة.. المرض حين يستوطن جسد المريض.. حيث لا خلاص ولا فكاك، تكون اعتيادات الحياة الشاملة فيه قد تطاوعت مع شراسته إلى مبلغ الحوار، وأحياناً بدهاء «شعرة معاوية» . وأحياناً بقانون«ارخميدس» في الطفو.. لكنه لا يقبل التحايل والمخادعة، وهو لا يشعرك بأنه مخادع، أو ملعوب عليه، إنه

يجمع ذلك في أسنّته ثم يهجم، وهو لا يحب الجبن والمخادعة والضعف والشكوى والهوان والاستسلام الرخيص، لأنه يركل هذه المعاملة وتهز غضبته أشجار عفوك الضامرة ليوقظها محذراً!

أنت تحيا في مناخه، وطقوسك الخاصة، و تحتاج إلى معرفة مواسم المطر والزرع والحصاد، والفرق بين شمسه الدافئة، وشمسه الحارقة، أما ربيعه و«بحتريّته»؛ فحددها أنت وقونن فصلها وخضرتها وجداولها وزهورها..).

الفصل الخامس

من هذه البوابة الواسعة على فكيها، وعبر المساحة المرتقة ببقع زراعية مهندسة الأحواض، ومجيئاً إلى المدخل الطويل اللامع .. دخل «زاهر» على كرسي العجلات، مدفوعاً إلى الامام بيدين تعودتا أن تمشيا برتابة؛ لا تعبأ بشيء سوى برقم الغرفة في الطابق الثالث، حيث سيودع المريض في سريره داخل حوض الكرسي، وكان يتألم من جرح جديد لم يكن للأدوية المضادة و «العسل» تأثير واضح على التئامها.

جاء بقدم صناعية من الركبة إلى موضع الأصابع، كان قد أجرى بترها بالضبط .. قبل اثني عشر قمراً شهرياً، ينقص قليلاً أو يزيد.

و..

اليوم جاء بجرح آخر.. لا يدري كيف سيتّخذ الطبيب معه رأياً، وبالطبع جرى له مثلما يجري في هذه الاعتياديات وقت دخول المستشفيات:

ضبط موازين السكر، والضغط الدموي، وتفحّص أعضاء البدن، مع قراءة أسماء وجرعات الأدوية التي اصطحبها المريض معه.

كان ذات الطبيب الذي قضى برأيه في بتر القدم اليمنى قبل عام.. هو الذي دخل اليوم، وكان عليه أن يبني قراره بعد المشاهدة الأولى، والذي لا يحتاج فيه إلى من يعاونه عليه.. نعم، ومن غير تردد قال:

- الأمر؛ لا يحتاج إلى تأخير.. هيئ نفسك للعملية، بعد يومين

من الآن.

- عملية ماذا يا.. دكتور ؟!.

- عملية؛ بتر القدم من أعلى الساق.

- ولكن.. هذا، لم يكن مُتوقّعاً يا دكتور !.

شيء من تلك الرجفات الحامضة.. تلك التي تجعل طعم الدم المختلط بالملوحة ؛ يطغى على اللسان، ويجعل البدن في حومة مفاجئة يتضاعف معها النبض، ليس لتهيؤ «زاهر» عندها أي احتياط أو توقّع ، غير أن الإنسان وقتما تُحيط به واقعة.. واقعة لم تكن له على بال ؛ فإنه لحظتها ودون أي تردد.. تتوظّف كل جوارحه، بكل شعيرات دمه الدقيقة والغليظة.. كلها مع تاريخه وإمكانيات وطقوس تصوّراته، للتركيز المكثّف في هيئة الخروج مما يسمّيه بالورطة التي تقع في أم حالتها... إنه لحظتها يحتاج إلى فعل؛ اسمه عامل الزمن.. الوقت هو الأمر الوحيد اللائق، لكي يرتب قراراته العجلى بتريّث، إذ لا يلبث أن يستوعبها، ثم يضع يده على أقرب الوسائل حلاً !.

نعم..

وعليه أن يتولّى قرار الطبيب الذي أضاف مُؤكداً:

- تستطيع أن تُفكّر.. لديك يومان..

- ....!.

- ليس في الصالح أن تتأخّر.. الفيروس سيدخل عبر الدم، وسيفتك بالقلب.. وبقيّة أجهزة الجسم.

- ولكن يا دكتور أليس من حل آخر ؟!.

- هذا.. هو، الحل الوحيد والسليم.

- ....!.

صحيح أنه ليس صعباً ؛ بعد أن تصاحب مع حالته و رأى قدراته الشبه الطبيعية؛ في المزاوجة بين قدم صناعية، وأخرى سليمة، غير أن الأمر يبدو صعباً إلى ما هو خارج التصوّر.. الآن، إذا ماتخيّل أن رجليه صناعيتان.. فكيف يستطيع أن يتحرّك بهما، أو يضعهما على الأرض!، وعلى أي حال... فهو لم يكن خائفاً من فقدان القدم، أو غياب هذا العضو المتحرّك إلى الأبد، وإنما خوفه من حدوث العجز (هل أتى على الإنسان ظرف نهائي.. رأى فيه نفسه؛ وكيف يذهب لقضاء حاجته محمولاً)!.

** ** **

الليلة..

بقيت الوحيدة في حياته التي سينام فيها بقدمه، وفي الثامنة في صباح الغد، وفي وعي غائب.. موقف وقوف الساعة التي تعمل أجهزتها دون عقارب.. سيكون الطبيب قد ارتدى ومساعدوه القفازات والألثمة ،ليضعوا سكاكينهم حيث خط البتر المحدد، فيكون «زاهر» مثل تلك الحشرات السوداء الصغيرة التي كانوا يقطعون أطرافها في القرية، وهم صغار، و يتسلون بتعذيبها.. فلا تستطيع الزحف أو الانقلاب على بطونها.

وماذا بعد أن وضع توقيعه المتشعّب موافقاً بكامل عقله وتصرفه على الإجراء ؟ إنها الموافقة، وليس دونها بعد الإمضاء تردد.

لم يشأ أن يصبح خلف عدد من الساعات؛ بلا قائمتين.. وبطوع

موافقته، جرح لم يكتب له الدواء شفاء، و فجأة سيصبح متنازلاً عن الرجل بكاملها.

قال: إنه لن يدخل في الغد الباكر خوف غرفة العمليات، ورأى ألا يفعل.. فكتب طلباً بالخروج من المستشفى، و.. خرج كأنما انتصر في قتال بينه وبين نفسه.

** ** **

اقترح صديق ل «زاهر» ؛ أن يسافر إلى خارج البلد، لاستشفاء وراء الحدود البحرية البعيدة.

«زاهر» لا يحب الأسفار البعيدة بقصد السياحة، فكيف إن كانت بقصد العلاج !، لكنه لم يدخل تأملات خاطره في الشأن الذي لا يقبل تأجيلاً بعد مدة التأخّر.

أعدّ نيّته و معه مرافقه نحو السفر، وكانت مدّة على مقعد الطائرة حيث لا وقت ولا مكان لغير وجهة العلاج التي نواها، وكان يُشكّل أنواعاً في أوضاع جلسته.. لم يدخّن، جاءت طلائع الفجر تطل على أرض المكان الذي سيتلقف هيكل الطائرة، وحدث قليل من الصخب بين الركاب الذين كانوا طيلة الرحلة مغمورين بالصمت الثقيل والنعاس؛ إلا أصوات متقاطعة من أطفال تغيّرت عليهم أماكن النوم؛ امتزجت بقراءة طويلة من القرآن.. تمدد في تلاوتها رجل حليق الرأس، بثوب أبيض قصير.

الوقت ينسلخ دون إنذار من طرف الليل الأخير، ويصب ضوءاً مثلجاً على الأرض المزروعة من أطرافها بالشجر والاخضرار.

لم يكن «زاهـر» مُنشغلاً بقراءة الموقع الجديد عليه، ولديه

محصّلة ثقيلة عن الحياة الاستهلاكيّة في مصدرها الأول.. لذلك.. فقد كان من الصّعب على المرء في مثل هذا الحال؛ أن يكون إناءً لحالات الدهشة التي تحدثها الأشياء الجديدة لأول مرّة، ربما ألا يكون محصّناً بمعرفة سابقة، لسبب يهمّه كثيراً.. ذلك هو حرمانه من الدهشة التلقائية، وعلى أي حال..

فقد صادفها في فتافيت الحياة، وكان أيسرها النظام التلقائي الذي يتحرك به البشر في أعمالهم.

الأشياء تكاد تغيب من البال، ويبقى نوع من الإلحاح في شيء بعيد، أو على الأقل في تلك الحالات الأولى لمعنى البعد الجغرافي نفسياً.

بقي وجهها الأليف على حافة الذاكرة، وكانت قبل سفره قد ألحّت بدافع رغبة الأمنية.. أن تكون مرافقته، غير أن «زاهر» يعلم أن الأماني جميلة أحياناً، وأنها ليست خالية من الشعور بالدفء المستحبّ، والذي يجب أن يكون مستحباً حتى ولو اكتشف أنها مجرّد أمنية

الأمر لا يتعلّق بكون امرأة ما.. تقاسمت معه بعض طيب اللحظات أو شاطرته همّ الانقسامات المُرّة في جفاف صحراء الحياة.. لا، وإنما لما كانت تتمتع به من مقوّمات يجد فيها ما يملأ ثغرة في حياته بصدف التبادل، مهما كان الوضع.. فقد أحسّ بحاجة إلى الاحتفاظ بصورتها في حقيبته؛ وحين تذكّر أنها بين أوراقه الهامة؛ فرح وصمت، وكان مرافق «زاهر» نادر الحديث، وعادة ما يُجادل الأمور في داخله دون أن يُشارك بها من يُجالسه، أو يضرب معه سفراً بعيداً، وهذا أمر يفيض بمرارة و كبد «زاهر»، رغم أن الأخير يعلم مقدار التلاؤم

الحذر بينهما.

لقد بقيا لساعات في صالة المطار، فكانا يبذران بصرهما نحو المارين يميناً وشمالاً..حتى داهمهما الملل، وكان الشباب من الجنسين يحملون حقائبهم البسيطة على أكتافهم وينثرون فقاعات ضحكاتهم حول خطواتهم الفرحة.. بين كل موجة ملل وأختها.. كان المرافق الذي بدا ذرعاً؛ يذهب إلى الموظّفة المسؤولة.. يسأل عن موعد الرحلة التي سيطيران عليها إلى مدينة «دينفر» بولاية «كلورادو» وحين جاء وقت النداء.. كان «زاهر» فد استعد لوضع جسده داخل حوض الكرسي المُتحرّك.

الوقت يتفسّح بكامل ساعاته الأربع؛ التي تحتشد بالثواني الرصاصية الثقيلة، وأحسّ مريضنا بأنه غريب.. لم يحدّث مرافقه بذلك، أخذ مجلّة من الجيب الامامي لمقعده، وراح يتفحّصها ببطء ودقّة.. كان يتظاهر بأنه يقرأها، لكن ذلك كان بعيداً بعد الاستحالة، إذ تتراقص السطور أمام عينيه بحروفها الإنجليزية الصغيرة.

سيؤخذ تواً إلى المستشفى، وسيدخل إلى غرفته المعدّة،... الطبيب المختص.. قال بفم مزموم وكلام سريع؛ إن وضع الجرح لا يطمئن، وأن حالته تُخالف ما كنت أتوقّع..(كان قد أبدى فكرة محاولة لتيسير الدورة الدموية في الجرح قبل أن يُشاهده).

بعد ما خلع «كوته» الأبيض الطويل، واستدعى جهاز تضخيم النبض.. اقترب من القدم؛ وسلّط مركز القراءة في اتجاه مسار الدم نحو الجرح، فكانت القراءة تختفي كلما اتجهت إلى الكعب.. وكانت علامات غير مرضية ترتسم على تقاسيم وجهه.. ما لبث بعدها أن فضح مقدار سوئه وغياب رضاه.. قال؛ أن الجرح قد مضى عليه

وقت طويل لا يمكن معه الترتيق، والامر يستوجب عمليّة البتر !

- البتر.. أهذا ماتراه يا.. دكتور؟ !

- للأسف.. بكل تأكيد ؛ نعم.

قالها بإنجليزيّة مضغوطة.. كأنما يؤكّدها، أو يستعجل في البدء بالجراحة.

تحدث معه«زاهر» في كيفية وحدود العملية، وكان يتوقّع ألا تكون في مكان الركبة أو فوق مفصلها.. لأن ذلك سيعني عدم الحركة فيما بعد. وكان عليه أن يوافق فوراً دون تأخر ففعل.

** ** **

الحقيقة التي لا ستار عنها؛ أن المرء حين يتناوشه الألم.. فإنه لا يفكّر فيما هو دونه، وإذا ما راح يدّعي أنه مُنشغل بأمر آخر.. فإنه قد يتخطى مصداقيته.

والحقيقة الأكثر مرارة ؛ هي تلك التي يسكن فيها الوجع بفعل ما، ثم يعود بعد نهاية فعله أشد إيلاماً.

نعم..

الألم؛ كان مُحيطاً هائلاً بمريضنا، فحيثما يجاهد في محاولة ستره.. إلا أنه يأتي كموج كبير وثقيل ؛ فوق ما جاهد في المراوغة فيه.

اليوم يفجؤه بدنه؛ أصبح ثقيلاً كالرصاص، ولكن.. ألا يمكن أن تكون العادة في سهولة توفّر الدواء المسكّن... هي التي أسبغت تشافي الألم..!

ليس صحيحاً أنها العادة دائماً، ولو أنه يصدق حدّ الامتلاء بهذه الأسلوبية.. ربما كانت المسألة جديدة، على أي مسرى كان..

فقد كان الطبيب يدعمه بالمسكنات الشديدة، فكان يحاذر أن يتناول من تلك التي حذّره منها الأطباء المشرفون على زرع الكلى.. إذا لا تلبث مع مضي الاستخدام؛ أن تهدم ما تم زرعه.

لم يتعامل طبيبه الآن مع أي صنف منها، لكنه أدخل صنفاً له فعْل غير محمود في جوانب جديدة.

مرافقه؛ يعلم التفاصيل بدقتها، ويعلم مقدرة مريضه على الرفض أو القبول.

لم يعد يعي مريضنا بالذي كان في غيابه.. إنه يتلمّس رجله؛ فيجدها مغلولة بالاربطة، ولا يستطيع أن يلمس البتر في وسط الركبة اليسرى..

(يا الهي..

لماذا جاء قرار الطبيب في هذا الموقع العالي، وهل كان لابد من المكان في البتر تحديداً ؟!

قل ما تبغي.. ليس إلا ما يراه الطبيب.. فماذا تذكر !، موسيقى جنائزية، تتكرر، كأنما هي بكبر دوران الأرض.. لا تنتهي، ولا تتوقّف عند حدّ، مئات الجنائز تمر بوسط عينيك. كثير منها يبقى بذهنك لأشخاص في الغالب ذهبوا محمولين إلى حيث أبدية الدفن، بعضهم ينتبه فجأة ليحادثك في شؤون لا تعنيك.

أنت في قبر زجاجي.. لا تحلم طويلاً، إنه قبر أسطواني يغشاك بالأكسجين، يفتق مسامعك.

هذا لا يجعل الأطباء يعفونك من كابوسه.. سيفعلون حلولهم.. أنبوب يُغرز بعمليّة جراحيّة في باطن الأذن، ليس مهماً.. تنفّس من منخريك أو أذنيك أو فمك.. إنك لا تعي، الحلم طويل يمتد شهراً؛ شهراً لا تعيه.

يا رب الإنسان.. مالي أراهم يجتمعون حول سريري، وكأن الطير على رؤوسهم..

الصوت لا يخرج إليهم.. يشح فيختفي، ومضارب البدو؛ تبدو بعيدة حتى يغمض الطرف.. «سليك» يهمز جواده.. يمشي وهو لا يمشي، يدور في مكانه حيث تنغرز قوائمه القادحة في الغياب، غياب لم يأت خاطره على الإيجاز فيه.

لا ترفع صوتك يا سليك.. إنك بلا صوت والمضارب بعيدة كالطيف؛ وشاردة بلا حراك.

الموسيقى ترتفع كلما مرّت جنازة، وتهدأ حيث تُدفن، والقبر الزجاجي ملفوف كأنبوب مضغوط؛ لا يسمح بالحركة.. كل الجهات المدوّرة تحيط بالحي الميّت.

ربّ..

بأي ذنب تكتف يدي هاتان الممرضتان، لماذا يقطنّ على حراستي.. الا يسمعن صوتي المستغيث !، يا أليفتي الطيّبة..

اسمحي لي بالخروج.. أريد أن أدخل من باب بيتنا، هاهي باب الدار مفتوحة.

إقرأي لي تعويذة الدخول بالعربية التي تعلمتها.. انظري؛ «مو.. سيقى»..لا؛ ليست «ميوزيك» لقد زلزلت أعصابي.. أطفئي هذا

الجهاز المسمر في بلعومي كالمنطاد المخفي.. كلما التفت؛ توخزين حقنة طازجة !.

اسمعي يا «فينوستي» الصغيرة.. لا تظنينني عدواً للشقْر، ولست أبيح الدماء الزرقاء.. إني أجيد الاحترام ومصاب بلهفة إلى الحضارة.. لماذا كل هذا القيد الموجع في يدي ؟!

تشير الممرضة إلى زميلتها المقابلة بعينيها.. فتمد يديها نحو مجموعة الأنابيب الملمومة في وريد الرقبة، تمسك بأحدها وترفع طرفه نحوها.. ماذا تصنع بداخله ؟، سائل ثخين بلون عصير الطماطم، ماذا يعنيك.. عصيراً أو زبداً أو قش صفائح دموية.. أو خلاصة ثُغاء النعاج.. يعنيك أنك ترى ما يراه الحالم النابه الغائب المختلط بالنعاس الدائم بالغيبوبة المسترخية في القلق والخوف والاغتراب والهلوسة.

قطارات شديدة السرعة والضخامة، تمر بعجلاتها الحديدية فوق الضلوع.. لا !، إنها خيول كثيرة بسنابك عليها أهلّة حديديّة.. بل مدافع في فتوحاتهم الإسلامية.. ما أول الخيط ؟ هذا الضجيج الطويل الذي تكثر في تفسيره المخيّلات.

تتشاور الممرضة مع زميلتها.. لا بد أنهما سيصنعان فعلة جديدة.

تأخذانه وتتجهان نحو الباب..، يكون في مدخل مظلم ليست له منافذ.. فجأة لا يجد حوله أحد.. يحتلّه خوف بعد أن يقضي زمناً لا يعرف له قياس. يصرخ.. بلا صوت؛ لقد انطمس صوته كما انطمس بصره في هذه البئر الأفقية المظلمة.. لا حياة في الصوت؛ لا حياة لأية حركة من أحد.

ليل بعمق دخان أسود لا يعرف مصدره.. هدوء.. هدوء قاتل، يسمع فيه أنفاس السرير المضغوط بأكياس الهواء.. هل هو نفس شخص آخر لا يراه، لم يعد يهمّه.. الصعوبة في معرفة نهاية الزمن المظلم الذي يقع في عمق لفافته السوداء !

دون اتباع لوميض الذاكرة.. يرى أنه في زنزانة مخنوقة بضيق مساحتها.. يهلوس،... صديق قديم يتكلّم معه، لا يرى غير رأسه المشعث.. إنه لا يحادثه.. بل يقرأ قصيدة طويلة يجادل في معانيها الزمن، هذا ما يشكوه الآن.. الزمن، يرجوه؛ لو يخرجه من هذا العمق الأسود.. فيجيبه أنهما في زنزانة.. لا يدريان ما هي تهمتهما... هلوسة!.

لعل السجان يفهم..ألم يسمع القصيدة ؟، بالعربية الفصحى كانت.. لا، إنه لا يفهم العربية ولا الإنجليزية التي يُمكنهما التحدّث بها عن معاناتهما.. ماذا يفهم، وبأي لغة يتحدّث.. هيئته تقول إنه من الهند، جميل.. يعني؛ من بلاد «المها تما غاندي»، و لا بدّ أنه قد عانى اختناقاً ما، ولكن لماذا لا يخاطبنا بالإنجليزية؟، انظر إنه يضع على عينيه نظارة بإطار دائري نحيف، رأسه حليق و أطرافه نحيلة وقويّة مثلما الذي يتحدى الجيوش البريطانية في شعاب القرى الهندية الفقيرة.. أنظر؛ إنه يخيفهم بحزْمه وصلابة عزمه،

يا رفيق..

مالنا ولهذه السينما التي نسمع هدير أصوات ممثّليها ولا نراها.. لا يتكلّم.. لعلّه يعمل حسبما يقتضيه عمله، ربما أوصوه بإغلاق فمه.

أصوات متداخلة لممثّلة معروفة، تتقايض مع رجل له صوت ضخم حول تجارة المُخدّرات !

صوت سلسلة غليظة الحلقات، ترتطم فوق صلابة الأرض.

شاحنة عسكريّة، تحمل جنوداً يرفعون بنادقهم، ويهتفون بحدّة «فري دووم.. دووم ؛ دووم»، ما علاقة هذا.. إننا في زنزانة تضيق بأنفاسنا!

ليل طويل.. أطول مما يضيق بالإنسان انتظار نهاية الزمن.

حُقن برؤوس طويلة. خوازيق.. سواطير عليها بقع دم غامق يابسة، قطط كثيرة مقطّعة من رقابها.. خوذ تملأ الفضاء.

صوت «فيروز» ينبعث من صحراء بعيدة «راحوا يرعوا غنمهم.. والعشب على ضلوعي» ينقطع الصوت، عيناه تدمعان.. «فيه باب مهجور.. أهله منسيين»، عيناه.. ما الجديد؛ لا صوت، لا قُدرة على الحركة.. لا نافذة.. لا ضوء، الماء محظور، منذ زمن لا يذكره «قالوا لي إني عشقان»، «أتاري الصبح عالي»، تذكّر أنه لا يستسلم.. لماذا يشكو.. أصعب الشكوى تلك التي تكون من الذات وإليها.

قالت «عصفورة الشجن» من غير غناء «أصعب اللحظات تلك التي تتذكّر فيها ماضي السعادة وأنت في شقاء».

مرّة أخرى..

يُقاد إلى ماكينة الغسيل الدموي.. ممرضة طيّبة من «مصر».. تُقدّم له كوب شاي بلا سكّر، «بقي على انتهاء مُدة الغسيل ساعة ونصف فقط»، من أدخله هذه التفصيلة.. إنه في وحدة الكلية الصناعية بمدينة «جدّة».

هذا الدكتور «فيصل».. لم يتكلم.. مرّ سريعاً نحو العيادة، طبيب آخر لا يعرفه، يؤكّد له أن رجْله المبتورة خالية من «السرطان» وأن اتصاله بالطبيب في «أمريكا» مستمر ومثمر «حظّك من السماء يا

وزير».

مرافق يتذمّر «طلّعت الشيب بصلعتي»!

فتاة تنسج مع أحدهم غزلاً فاضحاً وتدخله السبي.

ستارة ثقيلة تهتز، يتراءى من خلفها أسد طويل القوائم مرفوع الذيل.. سيهجم على امرأة في الحمّام، تُحاول أن تبحث عن شيء تستتر به.. تضع ذراعيها على صدرها.. تنظر إلى مكان قدميها، بشفة ملمومة.. كأنما تقول شيئاً غير مسموع.

كيف تتحوّل اللوحات إلى موسيقى عالية.. اسمع.. فقط أنصت، هذا الخط الأرجواني العريض؛ ليست له نهاية ولا يمكنك أن تعرف بدايته.. موسيقى.. موسيقى، ألوان، رائحة زيت.. فرش تتقافز قُرب اللوحة، كتب بأغلفة أنيقة وخطوط بدائية.. رجال عري الصدور شواربهم طويلة وآذانهم قصيرة.. يرسمون أشكالاً فاتنة.. الله، موسيقى جميلة غير تلك المكررة؛ تتوقّف.. يصحوا الرجال، لا يدرون من أين كانت تأتي.. صوت جرس التلفون.

– من على الهاتف؟

– صديقك فلان، ارفع صوتك.. لا أكاد أسمع.

– أنا بخير.. بخير، لن أموت..

– كم الساعة عندكم؟

–... المسرحية طويلة.

– كم الساعة؟

– هذا الرقم.. احفظه، قل له أو لزوجته أنني انتظر هنا.. لا أعرف

أحداً، مقفّل، أنا بالداخل.. تسمعني.. آلو ؟!.

– ارفع صوتك.. كم الساعة ؟.

صوت جرس التلفون مرّة أخرى.. باب يُفتح.. تزعق مفصّلاته، لا يدخل أحد. موسيقى مُكررة.. جنائزيّة، لا تبكي على شيء.. وجهها الأليف تطوّقه «شيلة» خفيفة، لماذا تدمع عيناها ولا تتكلّم.. لا بدّ أنني قد مُتّ وأنا لا أعلم.

موت ! لا أرغب في مُفارقة الحياة الآن.. ليكن في الغد، أريد أن أودّع أصدقائي.. الناس.. كلهم أعزّاء وليس من الفضيلة ألا أراهم.. الزهور وُجدت قبلنا بثلاثمائة مليون عام، «هيدي؛ هلاّ.. مش ضريبة»..

«بدّك طشت وطنجرتين، بخاطركم» ! ليل طويل).

** ** **

كان المرافق قد بحث حتى حفي عن «نارجيلة»، وكان يدفن كل حواسه داخل غرفة بأحد الفنادق.

لقد ضاق.. حالة مرضية غير مستوعبة، والأطباء لا ينبئون بخبر طيّب، اللغة لا يتقن الحديث بها، تضيق به الدنيا، فيذهب إلى المريض، يخرج من عنده دون أمل في لقاء آخر.. يدخل غرفته بالفندق، يُدخّن نارجيلته ويتذكّر «نفخ الأراجيل سأم».

لم يكن ليتصوّر أن السفر إلى أمريكا.. سيجعله وحيداً منعزلاً، أو أنها ستستدعيه إلى تدخين «النارجيلة»؛ مثلما كان يفعل في أوقات الفراغ والسأم.. إذا به يرى أن السأم يأتي في البلاد التي لا يجد المرء له فيها ما يشغله، بل وفي نفخ الأرجيلة، وحينها تطول به الحال، ويتفسح في تأملاته.. يجد أن السبب قد لا يكون محصوراً في إيقاع

الحياة بالمكان الذي يعيش فيه مؤقتاً.. فهو لو فكّر.. يستطيع أن يذهب إلى أماكن عدّة لا يجدها في بلده، غير أن إمكانيات اللغة، وعدم توفّر صديق أو مرافق ما.. يفقده القدرة على التجوال.. أيضاً فإن طبيعة التريث والسكون.. ومعرفته المسبقة المسيطرة على ذهنه عن هذا العالم البعيد الذي اسمه «أمريكا».. لن تصنع منه سوى السكون وتمضية الوقت بأي وضع كان.. فكان يمسي ويُصبح في الفندق، لولا خروجه إلى مريضه؛ أو قضاء حاجياته من الطعام أو..الشراب.

لقد نفقت ساعاته المقلقة بين أمل قريب وترقّب مفجع، مريضه في تذبذب الحال، والحال بالرصد المتسلسل عبر زياراته اليومية؛ لا تغيب عن مذكراته.. فيكتب و.. يكتب:

(نقلت هذه المذكرات من مفكرة المرافق أحمد مشري، كما وردت في نصها الأصلي، وكان أحمد يكنّي «زاهر المعلول» بلقب «الوزير» على إثر حادثة خاصة جرت لهما)

في يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/٨/١٤ ميلادية الساعة ١٢,٣٠ ظهراً بتوقيت «كلورادو بأمريكا»، بُترت الساق اليسرى وكان الالتهاب شديداً لدرجة الموت لو طالت المدة.

** ** **

في يوم الاثنين الموافق ١٩ / ٨ الساعة الخامسة صباحاً، ضيق شديد في النفس واتضح أن هناك التهاب رئوي فذهب إلى العناية المركّزة بالمستشفى، والحالة غير مطمئنة، لا سيما أن هناك عدة مشاكل أهمها زراعة الكلى مع المضادات الحيوية، نأمل أن تنتهي على خير.

** ** **

في يوم الثلاثاء ٢٠ / ٨ لا زالت الحالة كما هي في السابق، لكن الحالة مستقرّة (والحمد لله) نأمل أن يكون أفضل، الساعة الآن ٦,٢٠ مساء في الغرفة، الطفش + الوحدة + طلال مداح + الشيشة.

** ** **

قد يكون ليس لي الحق في الكتابة بهذه المفكّرة، لكن لا أجد من أحدّثه وللوزير× طقوسه الخاصة، الله كم أشتاق إليه أتمنى أن يكون هناك قُدرة الهيّة للجلوس معه وكسر هذه الوحدة. ولكن لا عزاء ولا مفرّ.

** ** **

اليوم الأربعاء.

الحالة أحسن بقدر ١٥٪ عن أمس ونأمل أن يكون إلى الأمام (إنشاء الله) لا زال بالعناية المركزة، المنظر مُفزع نفسياً، وممزق للداخل، لو رآه أحد لرمى بتعزية من غير رجعة وغير تردد، وأنا لا زلت متفائل وعندي حدس داخلي بأنه بخير رغم كل الأوجاع.

** ** **

الخميس

الحالة سيئة عن أمس، وجود استسقاء بالجسم، أربع مضادات حيوية، التنفس لا زال سيئاً، أخذوا عيّنة من الرئة + منظار + مزرعة لكل من البول، والدم والحالة غير مطمئنة مع وجود شبه غيبوبة، قد تكون من جرّاء الأدوية لا أعرف بالضبط، وأخذوا أشعة صوتية للرئتين ولم تطلع نتيجتها حتى الآن الساعة الرابعة عصراً.

** ** **

الجمعة..

الحالة تحسّنت من ٢,٥ إلى ١٠٪ جيد.

النتائج لم تطلع بعد بالنسبة للمزرعة، عسى أن تكون طيّبة، أتمنى ذلك وللوزير وحشة كبيرة عندما تراه ولا يراك ولا يتكلّم معك. الله يعين.

** ** **

السبت..

طفش شديد، حالة الوزير كما هي بالأمس، والنتائج لم تطلع بعد، طلع بعضها وهي جيدة، لكن أهم شيء عيّنة الرئة لم تطلع، الله يستر.

** ** **

الأحد..

النتائج طلعت كوّيسة، ربما كان في الرئة سوائل، اليوم الصباح عند غيار الجرح الذي بالساق وجدوا احمرار واسوداد بسيط كان نقص دم، من بكره علاج أكسجين ساعتين إلى ثلاث ساعات يومياً.

الجسم بشكل عام للأسف ضعيف، والأمل موجود، الحياة سوداء وكئيبة إلى حد الموت، وغربة وعزلة، لا زال الوزير نائم تحت تأثير المخدر وحالة الرئة لم تتحسّن.

** ** **

الاثنين..

الصباح جميل، الشمس دافئة، الحالة لا بأس بها، سحبوا لترين من الماء من داخل الرئة، السبب عرفوه.

هذا جيد، الساعة الآن ١٢ الظهر نزل على غرفة الأكسجين «علشان» الجرح الذي بالساق، نرجو له الصحة.

** ** **

الثلاثاء..

بناء على حالة الأمس صحوت الساعة ٧,٤٥ أخذت حمام وحلقت ذقني وذهبت للمستشفى ضاحكاً، فصدمت بأن حالة الوزير سيئة، عنده جرثومة بالصدر، تكلّمت مع الأخصائي إن نسبة اجتيازه للمرحلة ٣٠٪ فقط، نظرت لحالة الوزير فبكيت في داخلي، ولكن ليس هناك خيار آخر.

والأمل موجود وعندي إحساس بأن الوزير سيعدّي هذه المرحلة السوداء وربنا يسهّل.

** ** **

الأربعاء..

الحالة كما هي بالأمس لا تغيّر.

** ** **

الخميس..

لا تغيّر، لكني متفائل جداً، اليوم استطعت أن أتكلم معه لا يرد

عليه لكنه بالتأكيد يسمعني، لأن عينيه مفتوحتان ويحركهما، أتوقع سماع أخبار ممتازه.

** ** **

الجمعه..

للأسف لا يوجد تحسّن، لكن الحالة مستقرة وهذا يدعو للأمل.

** ** **

الأحد..

الوزير بالنسبة لجرح رجله ممتاز، بكره الصباح سينقلون الأنبوب من فمه إلى رقبته ؛ خوفاً من الالتهاب، الحالة للأسف كما هي لا تقدّم.

** ** **

الاثنين..

الحالة بشكل عام ممتازه عدا التنفّس، لكنه أفضل من ذي قبل ولو بنسبة بسيطة ،ولكنها أحسن من لا شيء.

** ** **

الثلاثاء..

الحالة تحسّنت بنسبة ٤٥٪ تنفّس ممتاز وإلى الأمام.

** ** **

الأربعاء..

الحالة ممتازة قياساً بما سبق نتوقّع الأحسن.

** ** **

الخميس..

الحالة ممتازة، تكلّمت معه بعد يومين سينزعون الأنبوب من الرقبة ليستطيع الكلام، ومن ثم حيث الحالة سينقل من العناية المركزة إلى الغرفة.

** ** **

الجمعه..

الحالة ممتازة وعظيمة، تكلّمت معه اليو م، كان يضحك، بعد يو مين؛ يو م الاثنين يطلع من العناية إلى الغرفة ومن ثم باقي المشوار، نتمنى له الصحة والعافية.

بكره أنا مسافر................

(لماذا سافرت بي الأقدار التي تختلف في مسمياتها إلى هنا. لماذا قطعت الصحاري والبحار في وقت قضى ساعاته في النوم والغيبوبة ومستحيل الآمال؟

هل صحيح أن ثمة أشياء تحدث دون أن يكون لنا يد فيها أو إصبع، وهل صحيح أن كل الذي حدث في الغيبوبة لم يبق منه غير بيتنا القروي الأول، وتلك الساحات البرحة والمزروعة باللوز المتفرّق على مساحات لا تتعدى ركضة الطفل العجول.. وتلك الحواجز الحجرية القصيرة لترد مدرج عن انثياله على الآخر، والجبل الصامد عند

شرقة الشمس، عريض وكبير وبغمّة سوداء كرأس النهر المتحفّز، لماذا كلما جاء ذِكْر شرْقة الشمس تذكرت ذلك الجبل وكأنها كانت في حمّام فاتر من خليط الفضة والنحاس، وكيف كانت فتحة عينها الصباحية تسكب رموشها الأولى في نافذة بيتنا.. دقّت في قلوبنا واجب الذهاب إلى المدرسة.. مدرسة كل أطفال القرية الذكور الذين يعودون بعد منتصف النهار حين تكون الشمس في كبد السماء.. إلى بيوتهم ليخالطوا أخواتهم وأمهاتهم ما تبقّى من غدائهم في القدور الفاحمة الحواف، وعلى عجل يحملون دفاتر الحفظ المدرسي وإلى المزارع يذهبون، و بأكبر قدر من عدم رغبتهم يشاركون، وعلى حين يحفظون ما تقرر من كلام لا يفهمونه بقدر ما يحفظون.

الآن..

وما هو حجم الآن، هل امتدت من الطفولة الأولى.. أعني إلى الآن، وكم من مساحة الأرض والزمان تفصل بين هذه الحجرة البيضاء في وسط هذا المستشفى الأمريكي البارد، البارد كرموش النساء فيه وكالقبّعات الأمامية البيضاء فوق رؤوسهن قرب الأسرّة وفي الدهاليز ووسط أدوات الطب وعجائن القطن اللفافات الثلجية.. يارب؛ لماذا كل الأشياء باردة. جامدة متكتلة كمواقيت الدواء وجرعات الماء المحسوب، حتى الأحاديث مجمدة كأنما خرجت من ثلاجات ما تحت العشرة من الصفر... بعد قليل؛ وخلفما تقف أمامي هذه القطعة البيضاء المشوبة باحمرار طال فتوره في الثلج، لتضع في أنابيب رقبتي البلاستكية محاليل من الطعام والشراب، وتنفض عن أصابعها قفازها الطبي الأبيض دون كلام، ولأنني لن أكون قادراً على الكلام والبلع، ولأن بلاعيمي المتخشّبة شبقية للماء الممنوع... الماء الذي لن يرويها إلا إذا كان من البئر القريبة من دارنا بالقرية، الذي كانت تأتي به أمي

على ظهرها في قربة الجلد المدبوغة بالقطران.. فما جدوى أن أرهق ذاكرتي لإيجاد أي موضوعٍ مهما كان مجنحاً عن ظرف وأدوات حالتي، لكي أتحدّث معها متسائلاً عن المكان الذي أنا فيه الآن من فائض الصحة العلاجيّة!

لماذا الكلام إذن، ولماذا يعتبرون الصامت لا يتكلّم في حديث لا ينقطع مع صمته.. هل يعلمون الآن أنني بعينين أحداهما مطفأة وأخرى فقدت عدستها اللاصقة في ممر مرضي هنا لا أدري كيف كان.. ما ألعن أن يصبح البصير بلا نظر!

.. ما أصعب كارثة أن تجد نفسك بلا ساقين ذات ليال مظلمة لا تنبت فيها نقطة ضوء، فلا تمتلك القدرة على الحركة ولا النوم على جنب مريح، وكلك جنب واحد مُلتحم بمرتبة السرير الهوائية التي يتحكّمون في خفضها وارتفاعها حسبما تتطلّبه أوضاع استخداماتهم الطبية فيك.

ما ألعن الألم السريري الذي لا يعرف له علاجاً حينما يسيطر عليك حلم فيه الطغاة يُجردون سلاسلهم في الأقدام وعلى الرقاب سيوف زبانيتهم، ليس لشيء اقترفته في حق الإنسان، وإنما لأنك ترفض القيد والمهانة، وتريد أن تقول نشيداً في قلبك عن الكرامة التي يدّعونها ولا يفعلون.. لأنك لا تريد أن تكون كمثلهم.

ليست كل العذابات المرضية أكبر من انتزاع كرامة الإنسان، وليست الأوجاع الليلية بأقسى من مصادرة حريّة المرء..

ما أكبر الغربة والمرض..

ما أجمل الأصدقاء حين يمرون بالذاكرة الموجعة محملين بالذكريات

وبلاسم النكات وأحلام المستقبل، ذلك الرصيد المبارك حين غذاؤك الوحدة والبعد والفراغ واللغة.. كم بقي من دورة لهذه الساعة التي تبدأ من حيث تنتهي، وهل تمر في مراسيها على وجوه الأصدقاء في الهجرة المدنية.. هل بادلت أمي ألفتها مع صوتها وقتما تُغنّي في خفوت قصائدها في صدى الوادي والجبال المتناضدة وقت انحسار دمع الغيوم على النبات والشجر ؟!

لا أعلم من قرع في مسامعي نبأ وفاة «ديانا»، ولست أدري إن كان جاءني في الأمس الطويل كمسافة مستحيلة.. أم إنه كان قبل ساعات ولم يمضين في مقاساتي الرخوة الممدودة كبساط الزمن، وماذا يعني موت هذه الشريفة المكرّمة التي غزت العالم بنبئها وكأنهم كانوا في حلم لذيذ لا يتذكرون تفاصيله، يا لِعُطْب المشاعر والدموع.. أم من أجل جمال ابتسامتها التي تنثر منها ياسمين النصر لآلام القصف في لبنان الجنوب، أم حواري القدس والخليل، أم على جبل الشيخ ومآسي التهجير، أم هي نجيبة من آباء نجب لا يمتهنون الغدر «والنابالم وقنابل المازوت والفسفور».. رباه ؛ إن العرب يندبون على «ديانا» مثلما يفعل الأمريكان إذ هبّت في أجوائهم رياح التعازي البليدة، فوقّعت بإمضاء التعاسة على شفاههم المطليّة، وكم ديانا ما بين القدس والخليل، وكم من ديانا ما بين بغداد والسودان، وكم ديانا في القرى الفقيرة بالجنوب.. يا رب العيون التي ترى القذائف والمصادرة في الضحى حقاً.. لتمت ديانا فهي ليست بأعز من أم تعجن دقيق رغيف في المخّيم لأولادها الجوعى.. ليست تلك التي تهبط على موتها دموع الشعوب التي لا تدري سوى أنها تعاطفت مع أنباء تأتيها ملوّنة في الشاشات بعد دعايات الجميلات عن «الهامبورجر» والمعطرات المزيلة لرائحة الأجساد.

أما أنت أيها القبضة الآدميّة في هذا السرير؛ فما أنكأ جرحك، وما أكبر وجعك الليلي الطويل.. استدع الممرضة فالجرس لا تدري مكانه.. لكنك بذاكرة كوسع الأرض).

أنا لست مسؤولاً إذا كانت الخطوط الزرقاء والحمراء داخل بياض العلم تُفرّق بين دماء الأرض، وتضع لها لونين لا ثالث لهما!.

اليوم الدولاري كبير أكبر من حديقة البيت الأبيض ومن كل مساحات السلام والديموقراطية التي تغطي الإعلانات.. لا ذنب لك يا زاهر الباحث عن آخر مبتكرات الطب الحديث هنا.. لكنك لست غبياً برغم غيبوبتك المرضية، فكل ما هو في أمريكا ليس ضرورياً أن يكون له دلو يسقي بالماء كل مواطن هنا.. أنت تحب النظام والترتيب، تحب الحضارية في التعامل.. تحترم الدقّة في العمل والمواعيد، وتحب الناس جميعاً، لكنك لا تميل إلى التمثيل بهم واستغفالهم.. لست شعارياً ولا مناهضاً عاطفياً وراء القيادات المعادية في عالم التنمية الثالث.. لست عدواً لأحد، ولا مباركاً لأحد، غير أن عظامك قد تكوّنت بفتافيت ذراتها على نبذ كل ما هو فتاك بالإنسانية في الدنيا.

«ادفع رأس مالك في الدعاية والإعلان واستبق النتيجة» السلاح الثمري الناجح، ولو باعوا دماءهم، فالإنسان سيفتح جيوبه لانتظارها قبل أن يدخل بيته في الحارة الترابية !.

كان «زاهر» قد أتى من قرية جنوبية بعيدة لا تتضح على الخارطة، ولم يكن تعلّم «الإلياذة» ولا قرأ «جان جاك روسو»، ولم يكن قد تعرّف على «زوربا» في اطلاعاته.. لكنه فُتن جنسياً ب «مارلين مالرو» وتنقّل في الأحلام بين أحضان «بريجيت باردو» الممثلة و«صوفيا

لورين» و«جون فوندا»، وهو مُغتسل حتى نخاعه بسجائر «الكنت» و «الكارتير».. لكنه بقي متدنساً بمليون شهيد في «الجزائر» وكانت البندقية العربية تملأ ذاكرته بالرصاص والبارود.. دعا الله وهو إمام في مسجد قريته الطيني الصغير أن يفتح قلبه للمعرفة، فعرف أن الوطن لا يختلس بأغنية في فم المغنيّة الجسدية بالكازينوهات.

لم يكن بقادر على النطق، لقد رأى الطبيب أن صوته ينحدر في خط بياني رفيع مع حالته العامة، وأن الفيروس الذي داهم رئته ولأول مرّة في تاريخ مرضه بدأ يتفسّح مع وطأة المناعة التي كان لا بد منها منذ استزراع الكلية، وأن الاستزادة من المضاد الحيوي قد بلغت أقصى حد يمكن تناوله ووصفه في قياس الطبيب المشرف على وظائف الأعضاء، وقد عرض المرافق رأياً بالموافقة على أمر تنازلي خطير.. قال: في سبيل الحياة لا مانع من الفشل الكلوي مرّة أخرى!

كان القرار صعباً، وكانت صعوبته أهون من المفارقة الأبدية، كان «زاهر» في غيبوبته المشرفة على وسط الأسبوع الرابع لبدايتها؛ يتوسّط الحال مابين القدرة على فهم آخر تراكيب لصورة الحديث، لكنه لا يستطيع الربط الشبه موضوعي بين الكلمات، ولا يدري إن كان لا يزال في حلم الكابوس الطويل.. أم أنه في برزخ بين الحالتين، وهذا هو قلب المصيبة التي عاشها بعد إذ فقد فقرات رقبتها.. كيف يفرّق بين ما تصوره الذاكرة وبين ما يعيشه الآن، الآن الذي لا يوصف بزمن محدد؛ هو قلب الحالة، والحالة لا تحتمل خطوة الذرّة في المقدرة على النطق، وكانت حركة الأطراف والرمشين مقيّدة بلا قيد.. لكن الكابوس مظلم والزمن خارج الحسّ، وكان الداخل في حواره مع الداخل لا يكاد يتوقّف عن الحديث:

(لماذا لا يتضح من كلامهم ذي اللغة الإنجليزية الباهتة سوى العلم الأمريكي ذي الألوان الثلاثة، لماذا يكون في البلاد النامية دائماً محروقاً كالشهاب الغاضب وتحت الأقدام الحافية في المظاهرات الشعبيّة.. ليس له مكان يبقى فيه سليماً سوى السفارات في تلك البلدان، وهذا هو الرهان الرسمي الذي يحتفظ بالأوراق الرسميّة من اليد المتذمّرة.. يا لتمثال الحريّة المخاتل...

لم يكن ملاكاً.. إنه كالآخرين، وليس فقيهاً بالخطب المدرّسة كما تعلّم وكان في طفولته وصباه، دعا الله وبكى ومحلت بصماته الماء.. بل ذبل مكان الشرْج في مقعده من شكوك نقوض الوضوء «الاستنجاء عين الطهارة» و «التواضع قمّة الشوامخ في قول الأبرار»، علّمه جدّه ألا يشرب معه قهوة الصباح مع التمر اللذيذ إلا وقد أحسن الوضوء وصلى الصبح وقرأ ما تيسّر ثم تجهّز للذهاب إلى المدرسة، وكانت المدرسة الابتدائية في القرية؛ هي الجامعة الاجتماعية التي تخرّج الأولاد الطاهرين النجباء ،ولكن «زاهر» كان بليداً في الحساب، وبليداً في أمور الرياضة البدنية، ويُحسن القرآن والرسم بالألوان، وجده الذي علّمه نبالة البنادق والتهذيب في المجالس والصمت وقت إذ يتحدّث الكبير في القوم؛ ولّى، وترك أيام جديدة لا تنفع فيها المآثر الرجالية فيما وراء البحار.. وأية بحار).

وقف «زاهر» وقفات تتفاوت في عرض الوقت، وكان يشك في طعم استجرار الذاكرة، واختلاط ألوانها.. النقطة المرّة الغير حقيقية والتي لا يعلمها.. هي أنه لا يلمس الفاصل الواقع بين اليقظة ونقيضها، والرب هو الحكم الوحيد في مستوى وعيه إن كان يرفع عنه القلم أو يوضع .

و..

لماذا حين تأتيه فاجعات الحالة المرضية.. تعود الذاكرة عند فتافيت الطفولة بالذات الدقيقة، ولا تأتي في الاسترجاع اليقظ، وهل يمكن حقاً للناس الذين يتعاملون مع المجانين كالأطفال الأشقياء.. إذا كان صحيحاً فكم هم سعيدون بطفولتهم التي يظنها الآخرون جنوناً.

فكر «زاهر»..

إذاً ما حاجة أن تختلط عليه الأمور، كل دارس في العلم، والعلم الفقهي الذي تعلّمه في البيت ثم في المدرسة.. كله علم فقهي، وفي الحديث القُدُس «إن الملائكة تضع أجنحتها رضىً لطالب العلم»، وأنه الآن في أمريكا وهي تبعد مئات الآلاف من الفراسخ عن الصين الواردة في الحديث، وعليه أن يفكر في حاله فينظر كم من الأقلام المرفوعة عنه، والتي لم يكن له اختياراً فيها، وأن حالات البيع والتنازل والزواج والطلاق وأمور كثيرة؛ لا تتم إلا باسترداد صحة العقل.. فهل هو في صحة موزونة عقلاً وبدناً تمكنه من شرعية التصرف، وهل دخل في زمرة العاقلين وقت إذْ سأل عن اللحم اللذيذ الذي يقدمونه في وجبات العشاء.. فقيل له بعد أسابيع: إنه لحم خنزير.

لقد كان يتصوّر أنه لحم محرّم يؤدي بآكله إلى التوقف عن تناول الطعام بسبب نفور الاستساغة، لكنه لم يفعل..بل دفع به إلى السؤال عنه للذته، آه لو علم جدّه المرحوم لخرج إليه من قبره لتاديبه.

لقد كان جده عندما يراه مخطئاً في أمر نهاه عنه؛ يعيّره باتباع «الخندريسات»، وعندما بلغ الأربعين ولصدفة ما.. علم أن «الخندريس» نوع من الخمر كان العرب يشربونه في ما قبل دخول

الإسلام، وأن «الزنديخ» صدأ النحاس، وأنه أيضاً بتحريف شعبي «الزنديق»، وأن «الخازوق» وكان يعني بها الورطة.. هو قضيب من الحديد مدبب يوضع تحت المقعد الادمي فيخترق الأمعاء ماراً بالمستقيم والمستعرض والدقيق والبنكرياس إلى مكان الكبد.. ثم تلفظ الحياة، وأنه لم يكن قد ابتكر للقضاء على حياة الموكل به، وإنما لكي «يرى النجوم في عز الظهر» قبل الموت !.

أما «التباتيك» التي كان يقولها لحظة المجادلة.. فلم يكن لزاهر علم بمعناها، و«سبحان الذي علّم الإنسان ما لم يعلم».

تعلّم أن الجمال ليس في جسد المرأة فقط، بل والغزلان العربية التي فتنت شعراءهم؛ إلا إذا كانت حيّة، وهم لا يريدونها حيّة إلا لحين يغدقون عليها حمى أشعارهم الطللية.. ثم يقضمون عظامها المتفحّمة في النار تحت بيت الشعر الصحراوي.

وأن الحب جميل والكرامة الإنسانية أجمل، والزهور المبثوثة فوق صخور الوطن جميلة، والعدل والحريّة أجمل، وأن الحياة إذا اختلّ ميزان العافية في طبيعتها.. لا يجوز القضاء على بهجتها، وليس المرض في حياة الادمي سوى صقل لتهذيب العناء، والنظرة المسنودة بالتجارب.. يا لعناء الضعفاء حين تنتفض مفاصلهم خوفاً من طارئ المرض، كم من أطنان الشفقة البائسة يحتاجون..

لماذا تقترن العاطفة المتثائبة بالمرض في بلادنا ؛ لماذا تذبل عبارات الحياة، وتسيل كرساب البقر من تحت ألسنتهم المشفقة ؟

لماذا ينظرون بالشفقة إلى أطفال المسلمين في كوارث أوطانهم؟

لماذا دائماً كلّما رأيت فجيعة أحدثتها التفجيرات والنار تمتد يدك

إلى محفظة نقودك وكأنك هزمت المعتدي، وإلى أين ستبلغ المآسي المدعومة بالضعف والإشفاق؟

لماذا نتنفّس أحقادنا وعقدنا على نفقة إيذاء الآخرين وراحتهم !

ألم يكن المريض المرفوع عنه القلم:

الغربة القاتلة أن تحيا ذليلاً في وطنك.

أربعة أيد ووجهان خشبيان مسلوقان في الثلج.. تتقدّم الممرضتان؛ فتفكان ذراعيك المسدلتان إلى حافتي السرير، وكأن حلمك الهارب بين الغيبوبة والصحو لم يكن من فراغ.. فالقيد الذي تحسّه يخنق طرفيك ويعلو إلى نبضك وأضلعك؛ قد كان أمراً حقيقياً، و كذلك الصور التي كانت تعيشك في ظلمات لا قرار لها من المحاكمات وتحقيقات مزلزلة دون تهمة، ونتف الأسنان الأمامية والأظافر، والرمي من شواهق طيور الرّخ الكبيرة إلى صحاري عذراء الشجر والنبات القليل الشاحب.. في ممرات ينمو في مداخلها الزواحف، وتمضي كحبال حديدية ضخمة بين قوائم الجِمال.. الجِمال الهائجة كاشفة الأنياب مفرجة الشفاه المشقوقة العريضة.. تدور عنك يا بضع كائن؛ لتسحقك تحت قرصان بطونها القاسية..

يا رب الطفولات ؛

لماذا لا تأتي فتافيت الطفولة؛ والصبا الطازج إلا عندما تبدأ تنسلّ على بطء من رحم الغيبوبات، وكأنك موعود بلا وعد مع فيلم عريض بين الفوسفوري والظلام وقتما تغتال يقظتك الغيابات الذهنية الطويلة والقصيرة، وكم هو حجم الأخيرة التي سجّلت الأوراق الطبية في مدّة كان شريطها الزمني ثمانية وعشرين يوماً ؟

الآن..

ما خطب هذه الأيدي المُقفّزة بالبياض، وقد حلّت على حين انتباهة مغيبة، رباطات أطرافك الموثقة بالسرير !

إنهم يدخلونك قبراً زجاجياً أسطواني النفس، يقفلونه من جهة الرأس بالحديد والمطاط والضواغط المانعة للهواء والصوت والحركة..

القبر الأكسجيني الأنبوبي المصمم على قدر امتداد القامة الآدمية المديدة.. أنت لست مديداً؛ وقامتك المدفونة في هذه الأسطوانة الزجاجية المفرّغة؛ هي بلا رجلين من حدود الركبة إلى موطئ اللاقدمين.. هل تصوّرت أنك بلا قدمين ولا ساقين.. بلا رجلين!،

لا.. لا تستطيع أن تتصوّر لكنك من دونهما... دع هذا الآن.. لقد تعلمت أن المصاعب في أولها فوق درجة التصور.. فكيف الاحتمال!، بعد وقت ستغدو الأشياء في منطقة التصديق، ثم التآلف، ثم الطبيعي، والآن..

سيسلخون قميص المستشفى الفضفاض الطويل عن جسدك البارد، وسيدخلونك عبر هذين القضيبين من مكان ركبتيك إلى القبر الزجاجي.. لست ميتاً !، إنك فقط مجرّد من الوعي والحِس، وأذنيك مثقوبتين كيلا ينفجر دماغك من ازدياد الاكسجين.. هيا؛ عبّ الآن منه في وقت تندر في مدائنه الصناعية وأماكنه المدنية الاستهلاكية الأوكسجينات، ألست ذلك الذي تفتح النوافذ وتشرع الأبواب، وأنت مدخّن فوضوي لا تحسن التفكير والكتابة على الورق دون سجائر..

هيا..

اغترف حتى تترع شرايينك، إياك أن تشعر بالاختناق في هذا القبر.. فالتنفّس ممكن داخل الخمس المركّز من مجموع التراكيب الخمسة التي تحتاجها من أجل النفس الرئوي الدموي في هذه الحياة.

وقت لا تقدر على ضبط حوافه الدقيقة، لكنه لن يزيد عن ثلاث من الساعات، ثم يعيدونك بحفظ الحافظ الكريم إلى سريرك وقيودك وأنابيبك الغذائية والدوائية.

لا خلاف..

لقد أدرك «سليك بن سلكة» رجل الصعلكة العربي لما قبل الإسلام، أن زماناً يقترب، لن يكون له فيه بين هائجات المطايا غارة لاغتصاب أموال القبائل حين يكون في عليتها بيوت يرفع عواميدها الغنى، لا خلاف.. فما اعتاد الصعاليك أن يُغيروا على الكريم ولا المغيث، ولا صاحب الشيمة وقت أن ينظر إلى ذات يده محتاج، وأن الصعلوك مصطلح لا يحطّ من قيمة ارتفاع الإنسان، فهو لا يربي مالاً ولا يربى بملكه الشحيح في الزاد والقطيع، ولا يمنع فقيراً ولا قليل حيلة ولا منكود دهر ولا صائغ كلمة في الهوى والنوى وقهر سواد الليالي في طول الجوع.. فلماذا لا يكون كعادات(بني صعلوك) في الفروسية وأخذ فائض الزاد والقطيع والمال ممن زادت عليهم أسباب حاجاتهم؛ فيعطيها لمن احتاجها، وماذا ينقص «حاتم طيء» الذي تاب في الصعلكة أن يبيد ذات اليد، ويذبح خيله للضعيف، ويذكر اخوته السابقين ممن تصعلكوا معه بخير الوفاض والشعر والمثل الجميل..

لا.. يا ابن سلكة، فالوميض لا يفيض، و «ابن الورد» و«الشنفري» ما ندما على خير في الصعلكة قدماه، لكن زمناً يقال عنه قريب.. يأتي بتشريع جديد يقاضي فيه الناهب، ويوهب للفقير والمسكين وابن السبيل والعامل عليها حق، فهل تنتظر حتى تجف عظام الفقراء انتظاراً، وتقطع شريعة المعذبين بقسمة الأرزاق بين القبائل، وهل كان جرم على الفقير أن يكون فقيراً، وهل كان على العبد جرم أنه لم يختر لونه حتى ولو لبس بيض الثياب، وكم كان «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، مثلما ورد في كتاب تراثي قديم.

و..

كان سليك قد رأى فيما يرى الهاجع في النوم.. أن ولياً في أرض الكنانة.. طاردته رغبات التسلّط؛ فلحقت به وجزّت عن عنقه الرأس، وجاءت امرأة العزيز تندب مولاها، وتصب زغاريد حزنها في قوم تحلّقوا حول الرأس المقطوعة يرتجفون من شعيرات ذقونهم العريضة.

دواخلهم الجليدية تنتفض كرهاً ومزاودة، وخوفاً ومخرجاً، وقطّة ثمرية الكساء، تلعق رأس المذبوح وها إن الظالم والمظلوم يحتكمان إلى شريعة الزمن المشرع، وها إن «زليخة» تقطع مع النساء أصابعها، أو تقطع اتجاه بصائرها وكمدها.

مسكين أيها القميص المتهم منذ غزل الحكاية الأولى؛ إلى عهد إن كان دليلاً على «القدّ»، وما ذنبه إن قُد من جهة طائفة في اليمين أو طائفة في اليسار، وتفجع سليكة الرؤى.. ويذهب استفجاعه بالصوت في الصحاري: أين اختفى العدل ؟.

كان «زاهر» يسبح بدون قدمين بين الإغماءة الحالمة والإغفاءة

المدركة أحياناً.. لكن ما جدوى أن تكون معلقاً على بيرق أمام مبنى الواجهة في «هيئة الامم»؛ والعدل باختلاف أُمميّته يُراق كالغاز المسيّل للدموع، أو الغاز الضحاك، أو «الأيثيل» أو «الميثيل».. العدل يتسرب من بين الأصابع، ومن بين الضلوع، ومن بين أزيز المكائن واسطوانات «الأكسجين».

تثرثر الخيالات في الغفأة المخدّرة، ويلتقي زاهر بأناس عرايا يقهقهون ويغنون بأغان لا يفهمها.. إنهم طيبون على ما يرى، بعضهم يقضم أطراف الآخر، وبعضهم يصب سائلاً ذهبياً على أجساد النساء فيلعقه حتى يثمل ويتمايل كغصن ضامر في شجرة اختلاط الأقدام والأفواه والغناء الغريب.

«رجل سمين يقايض زاهراً ؛ لا يدري على ما.. لكنه يفهم منه بعد صعوبة من حركة اللسان والشفتين واليدين التي أغدقت على فهمه.. إنه يعرض عليه مالاً خيالياً مقابل أن يصمت عن البحث.. يقول:

- البحث !؛ البحث عن ماذا ؟.

يشير السمين إلى كفتي يديه كميزان، فيفهم زاهر أن الرجل يتحدث عن الميزان.. فيجيبه بالإشارة؛ أنه ليس مستحيلاً، وأن شفتيه لا تفهمان المقايضات؛ وأن العدل ليس في كونهم عرايا، وأنه يحلم فقط بأشياء خيّرة جميلة.

وكانت امرأة من بينهم تضغط على نهديها الضخمين، وتصرخ حتى إن الحليب غامقاً يسيح على تكويرة بطنها وانسكاب فخذيها وتطأه بأصابع القدمين»

يا رب.. يستجدي زاهر.. اسقوني.. اسقوني!.

تقول الممرضة: ممنوع.

يفهمها، فالماء لا يليق بحالته، وهو مقيّد بالشحوب، والشحوب يخشب بلاعمه، وبلاعمه مستبدّ له بالبلاستيك، والبلاستيك ليس إلا أنابيب صغيرة وضعت للطعام القليل السائل.

لقد تضخّمت خصيتاه وامتلأ ما تحت جلده بغاز يترك في أذن السامع له «جغجغة» هامسة، والطبيب المتردد عليه يخاف عليه من الغاز المميت.. يا رب الغائبين، ورب الغيبوبيين، ورب الغرباء والمعالجين والموتى، ورب العاريين والمستترين!.

كان زاهر يحلم ويفجع ولا يدري إن كان في الغيبوبة أو الصحو.. يصرخ مفجوعاً.. ويظن أن صوته واصلاً.. فيطلب الماء.

** ** **

وجد زاهر أنه يحتاج جداً إلى قهوة مدعوكة بالقرفة والجنزبيل. كتلك التي روى بها صباحاته القروية.. إذ كانت أمه تسحق القهوة المحمصّة في المهراس النحاسي الثقيل، بانتظار خبزة الصباح المحفوفة بخط الرماد، والرماد آخر ما يبقى من حياة الجمر فوق «مشهف» يكبّ وجهه فوق عجين تلك الخبزة في الليل، وحيث يطل الصباح بشرقة شمسه وفرحة وجوع ليله، وارتداء الثوب الوحيد للمدرسة، عدد من قرعات القول بالاستعجال، بسرعة تصغر في عين المستعجل؛ تشرق الشمس من خلف الجبل، وتغادره من أعلى القمّة إلى أعلى فأعلى، وحين تُصبح خلف شجرة اللوز الكبيرة أمام حوش المدرسة.. (نكون قد أخرجنا أكفّنا الصغيرة من

جيوبنا استعداداً لصفارة الطابور).. لقد قُضي الأمر يا زاهر، نامت الشمس آلاف الليالي وأصبحت آلافاً.. غسلت أجفانها ونمشت جفونها الطازجة في عيون الفلاحين، أكلت وشربت معهم على رائحة الطين والمحراث والبذرة الطريّة.

الله.. الله ؛ قُلْ للجميلة في الشيْلة السوداء لا تتشرشفي

إن البساس لأنجاس ملاعين.

مالك يا ابن البلاد تخلط أوزان الشعر بأكيالها، وحنطتها بشعيرها.. ما لك تحنّ كما لو أنك تئن بين غمدة سيف النهار واغمادها ليلها.. الله !؛

تلمّس الآن وجهها النهاري بين أصابعك الصغيرة، وقبّل خدّيها المسفوحين كأبلغ وجْد في الدنيا يُعانيك وتعانيه؛ تشتهي لو أنك تملك أوقية جرأة لتهبط قليلاً إلى شفتيها الوارفتين بالحرقة والظمأ.. إنك لست في القرية المطمئنة الخجولة.. أليست الدعايات هي التي عرفتنا بنجوم التمثيل !، أنظر الآن.. «مديحة كامل» هي بلحمها ودهن شحمها وصوتها الأجشّ الدافئ؛ تلج في حلمك، تقول بالصوت المستعرض «عايزه مكيّف في الخيمة».

«عايزة مكيّف.. الدنيا حرّ ؛ يا سعيد» !.

لكن.. من هو «سعيد» يا عاشق الحمام.. ردّوها إلى شقّتها في «الميدان» لقد نسيت فاتنة الحالمين أن تفتح ل «المكوجي» لكي ترتدي «الأندروير» الملائم للون فستانها الخارجي.. لا.. ومن قال إنني مفتون بالطقوم في هذه اللحظة الغائبة الحالمة.. أريد صوتك المبحوح ورقبتك المشابهة لمسلّة فرعونية مرمريّة ملساء..

ترى هل نجحت الإعلانات، كلهن يقلن «عايزين موضوع جيّد في التمثيل»، بارك الله، مثل ماذا يا فاتنة المكبوتين.. تريدين تمثيل زوجة «بختنصّر»، أو عشيقة ك «ا لليدي شاترلي».. تعالي هذه مسرحيّة شعريّة «الأميرة تنتظر»، ولا يزال عبد الصبور «لو وجد بطلة تليق بهذا الدور» با قولك إيه.. وش معنى أنا اللي اخترتني.. يعني ما فيش غيري؛ يا راجل يا بدوي» ؟!

ماذا أفعل.. لقد رأيتك في غيبوبتي ؛ تفحّين (احلى الفحيح وتتأوّهين بلذّة خارقة):

لا سأم.. نقيقي بين (...) سأم.. آه.. سأم «، قلت أنك سيدة في فهم القوافي الوطنية.. أحببت تأوهاتك، قلت: أنت وحدك الملائمة لهذا الدور.. لا شك أنك مررت ب «رؤوف مسعد»وهو يكتب روايته «بيضة النعامة» وكنت نجمة كنجمة «كاتب ياسين» في سجون الجزائر..!

«بس أنا.. عايزه أدخّن.. لا.. لا.. من سجائري الخاصة».

** ** **

عجباً ؛ كيف تبدو الأمور في أحسن صورها؛ وهي في حقيقتها منحدرة نحو حافة الخطأ، تحمل خالص فجاجتها وأنكا مغالاتها؟!.

لماذا تبدو الأشياء الخاطئة مارقة كالسهم؛ لا يعترضها أي مانع من حقيقة المعاش اليومي !.

هل صحيح أن الطلح يزهر بالعنب، وأن العنب هو النا تج النهائي لعصارة العسل الشوكي.. وهل صحيح أن البسكويت أرخص من الخبز، وإن الخبز منثور كالحصى على الطرقات حتى أن الناس

يتحاشون المرور بالدروب، وأن الدروب مفتوحة لا يردعها غير الأفق البعيد ؟!

عجباً..لا عجباً ؛ فأنت حين تُقرّب سبابة يدك من عدسة عينيك، ترى الفأر فيلاً، وكوب الحليب بقرة، بل إنك تستطيع أن ترى المدنية بحذافيرها تربض تحت سبابتك.. بل تستطيع أن تسد الأفق!

أحلم..

فالحلم وحده الذي لا يمكن أن يقبض عليه ويودّع في الزنزانة، كل الكائنات خلقت بطبيعتها طليقة دون قيود.. دعك ممن يرى أن الإنسان لا يجب أن يوضع في درجة الحيوان، وأن كرامة الآدميين في مثالياتهم التي لا تتصالح مع القوانين، بل التسامي.. وكيف أنه يملك دماغ الحمار أو الفيل.. لو أن النشوء والارتقاء أتى على القطط لرأيت العجب !

** ** **

الطبيب الذي لمس «زاهر» بساطة تعامله وحرصه الإنساني - بحكم مهنته في هذا الواقع الصحي-، وهو هندي متجنّس لا يكاد اسمه يصعب على الذاكرة «قُفته، أو كُفته».. أخبر المرافق الذي يعيش بين مرتكز أرجوحتين في حالة مريضه «زاهر»، بأنه لم يصادف حالة كهذه، فبينما يكون قد صفق كفيّه ونفضهما من الأمل المقام على النتائج المختبرية العلميّة؛ إذا بزاهر يتنفّس وتدبّ الحياة إلى رئتيه.. لقد تنفس اليوم منذ ساعتين مضتا؛ تنفساً طبيعياً دون جهاز مساعد !

المريض لا يعلم عن أمور تفصيليّة كثيرة، غير أنه لا يزال يتحسّس

القيد.. القيد في النفس، وفي الحركة، وفي الحلم أحياناً، ولا تزال شواهد الأمور؛ تذهب وتجيء بين حالة الذاكرة التي تحسّ بالموسيقى الطويلة(التي رآها جنائزية) في خاطره وصدْر هلوسته، امتدت من قُرى الجنوب إلى وسط أمريكا في هذه المدينة.. في هذا السرير.. على هذه المبعدة عن ألفة الأصدقاء و الأقربين والمعروفين.. أنه قد حيّر الأطباء في دهشتهم للتعرّف على وجود سرطان في العظم !.

نعم..

هكذا! كان اليقين الغيبوبي يميل بكل قامته على الذاكرة المريضة، وهذا ليس صحيحاً ؛ أجابه مرافقه ب «لا »، وكان يبتسم.

وسأله أيضاً:

- هل أنا..ميّت !.

-.. لا؛.

- هل أنا في وحدة الغسيل الكلوي بمدينة «جدة«؟

-..لا ؛ أنت في أمريكا ؛ تتعالج من أجل جرح في قدمك اليسرى.

- ولماذا ؛ هذه القيود بأطرافي ؟.

- ليس هناك قيود ؛ مكان العمليّة الجراحيّة.. فقط.

كان «زاهر» قد بدأ يدبّ دبيب الصبح حين يُهسهس في أول يقظة الحالم:

- منذ متى ؛ أنا.. هنا ؟.

– منذ شهر ؛ تقريباً !.

أجابه مرافقه وهو لا يزال مُبتسماً كأنما لم يُصدّق.

قليلاً.. أتت إحدى الممرضتين اللتين رآهما «زاهر»؛ جلادتين بين أصابعها حقنة المخدّر (أمر الطبيب بها منذ بدايات الحالة؛ لتسكين الألم) وليس لهذه الحقنة من معنى؛ سوى إنها ستدلق المريض بذاكرته في حوض كبير اسمه «الغيبوبة» وتخريف التصورات والهلوسة.

تصّور.. اصنع الخيال كما لم تبغ.. كوابيس مُخيفة..أمور ليس لها حقائق مدركة:

لقد رأى صديقه القديم وزوجته؛ يتحادثان في أمره وهو مسجّى على النعش.

(إنه لا يملك شيئاً، ولم يترك شيئاً؛ الناس كلهم دون اعتذار سيموتون بالسيف أو الرصاص، أو ب «الفايروس»، أو.. آلاف الحالات التي يختارها الموت المفاجئ، ربما كان البحث عن حياة كريمة فوق وجه الأرض أو تحته لا فرق.. استدعي أمه الآن؛ بلّغيها أن تحمله في سيارتها التي تقودها إلى حيث تختار بُقعة يدفن فيها، فهي برغم أمّيتها التي تبلغ عدم قُدرتها على قراءة فاتحة الكتاب.. لكنها أعرف بمكان دفنه)

يسمع «زاهر» كلام صديقه الحميم، يراه مطبقاً على حديث يمتد طويلاً فعيناه ممتلئتان بالحديث: (هذا واقع يا فوزيه؛ العالم لن ينتهي بموت «زاهر».. قولي ليترفق به التراب، أو الكفن، أو ليرحمه الرب.. هذا واقع؛ لقد.. مات).

ليس جميلاً أن ترى نفسك حياً؛ بعد أن تكون قد سجيت، ونودي

بأمك لتحملك إلى مقبرة البيت الذي أنشأتك فيه، ليس جميلاً أبداً، تشاهد موقعك عند الآخرين بعد موتك.

الموت لا يمزح، ولا يمكنه أن يُفاوض دماغك؛ فكيف تتخيّل أنك ميّت.. هل بلغت بك الغيبوبة الطويلة حداً جعلك تجد نفسك ميتاً، وما معنى هذه النهاية الأبديّة التي تعنى انقطاع الدماغ عن كل المؤثرات والمعاني؟.

عجباً.. غيبوباتك «السكّرية» عديدة أغلبها أتى على تلافيف دماغك لنقص شديد في «الجلوكوز»، وأنت عنيد في التصالح مع الغذاء.. ألا تدرك يا «زاهر» أن التصوّر أحياناً؛ يكون مجانباً لما يحدث في الحياة المرضية.. اسمع؛ تصورك أن عدم الرغبة في الطعام.. سينقذك من الواجب في أداء تناوله خطأً.

ألف مرة ومرات؛ تعرف هذه القانونية الطبيعية، لكنك لا تفعل بها، ألم تدع أنك إنسان علمي الفكر والتطبيق، لماذا إذن يخونك أو تخون التطبيق في هذا الأمر الضروري!

تستأهل.. غيبوباتك متكررة ثم تلف في الذاكرة.. لن أقول تصوّر أنك بدونها.. لأنك لا تستطيع أن تتصوّر؛ ماذا يبقى لك؛ قلب ينبض كالوردة الوحيدة بلا ذاكرة، يا... ثمة إثنان وعشرون مليون طفل جائع يموتون في الأرض، وأنت أيها المدلل لا تريد الطعام !

لا تقل أنك تتصور الأكالين كالبقر... «الجوع كافر» لا يعرف الحلال.

قالت جدتك:

«راح واحد بدوي إلى الحكيم، ونشده:

يا حكيم.. ويش أحسن المعوشات ؟

قال: الجوع أبصر».

قُلت أنت يوماً في حالة عدم تصالح:

(الطبيعة لا بد أن فيها نوع من الحمق.. لماذا يجوع الكائن البشري؛ هل يتكبّد ويسافر ويعمل ويشقى لأجل إسكات حوارق الفراغ البطني!، ألم يقل الكاتب الأمريكي المسافر حتى الموت في الغربة.. «الإنسان لا يعمل من أجل أن يأكل»، وكنت تتناول الأمور بشكلها التجريدي.. هل سألت: وكيف يعيش «هنري ميللر» إن لم يأكل ويشرب.. ربما قلت ؛ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»؛ نعم، و لكن لم يقل إن الخبز ليس مهماً لحياة الكائن البشري، الغذاء إذا كان سينقذك من السقوط في غيبوبة؛ فلماذا لا تتقيها!.

لا تقل إن أول بداية الطامع في انتهاك حقوق الناس الآخرين هو الجوع ، فاستراتيجيات المستبدين لا تدل على أنهم جوعى جاءوا من أجل بطونهم..

دعك من ديماغوجية الفلسفة الجاهزة.. قل لي أيها المعتدّ بذاته المثالية.. لو أنك لم تتناول وجبة غذائك؛ هل ستعيد اللقمة لكل جائعي العالم، إنك تضيف إلى جوعهم وجهلهم واحداً لا يحتاجون إليه.

يقول «التهامي»:

«حسبت أن أم رجلين تحمل أم بطه.. أتاري أم بطه تحمل أم رجلين»!.

هو لم يقرأ فلسفات ولا يحزنون..لا يجيد قراءة فاتحة الكتاب..

لكنه جرّب ؛ فأطلق حكمته.

** ** **

الغيبوبة «السكريّة»؛ قد تمتد في الزمن قليلاً؛ ثم تتحوّل إلى.. فإلى.. فالموت، أما الغيبوبة التي يعيشها دون عيش «زاهر»؛ فهي بأسباب ليس له فيها ضلع ؛ غيبوبة غياب مختلطة بامتزاجات لا قرابة لها بالوعي، وربما ولا بالقلم.. كيف يجد ذاته أن يتكلم ؟!

هل يجرّب الحي كيف هو الموت ثم يعود!

نعم..

لقد حدث ذلك لزاهر، فكيف جرب الموت ؟

لم ير شيئاً، ولا يدري عن شيء.. إنه نهاية يهرب منها كل الناس، مع أنها تعني «اللاشيء».. تلك النقطة التي لا وجود لها بتاتاً في الذاكرة؛ لأن الموت هو الوصول إلى اللاشيء.. الوصول دون إدراك إلى اللاإدراك بالإدراك ؛ م الخوف.. اليس الخوف إدراك شعوري، الموت هو اللاشيء أبداً، غير أن «زاهر» لا يرغب في الموت؛ لقد تغذى بويلات طويلة من «ميتافيزيقيا» المخاوف التي لا تسمن ولا تغني...

الإنسان يخاف الموت لأنه يريد الحياة، وهذا ضروري للحفاظ على حياته، الحياة ولو اختلفوا فلاسفة الدهر.. هي التي تجعله يفكر في الموت.. أي أنه يفكر من موقع مضاد جداً دافعه الكينونة الحياتية وليست المواتية.

علم «زاهر»..

أن الأطباء يعتبرون الميت «متوفي دماغياً»، و أدرك أن تقريرهم النهائي صحيحاً، حتى ولو نمت الاظافر والشعر بعد الموت بثلاثة أيام !

لكن.. هل يجعل المرء نفسه في عرض موت رخيص ؟

الموت نهاية حتمية تقييمها يأتي في مفهوم الحياة قبل أوان نهايته.. الإنسان لو كان بلا مفهوم في الحياة سينتهي إلى الموت، ولكن خير الموت ذلك الذي تدرك قبل حدوثه في أي ظرف بأنك تركت شيئاً للحياة يستحقّ أن يُقال عنك قولاً طيباً، أو فائدة إنسانية. للذين يحيون بعدك.. إن الحياة هي تلك التي توجب عليك أن تحترم ثوانيها بإنسانها الذي أنت واحد من جزئياتها المتراكمة التي تشكل وحدة خيرة إنسانية!

«زاهر» أدرك ذلك دون اعتماد، هل قال كلمته ؟.

ليس بعد.. إنه يحب الحياة بآلامها وغيبوباتها، لكنه لا يخاف الموت.

لا تخف من الموت.. ليس لأنك ستموت بل لأنك لا تزال تدرك معنى الحياة.

إذا كان لديك مفهوم إنساني كما تراه فلا تخف.

عندما بلغ «زاهر» دوراً بالغاً في القدرة على التنفس والشراب والطعام قليلاً؛ كان قد نقل إلى خارج العناية المركزّة، وكان قد أخذ يدب في مرحلة يكاد فيها أن يجد نفسه كائناً غير متردد في شكوك الغياب والحضور..

لكنها تحوم في الذاكرة اختلاطات ملأى بالصور المتناقضة، غير أنه لا يسلم كل مساحة ذاكرته لها، وذلك لنجاته الواعية أخيراً.

أيام لا تتخطى في عددها البضع مرات كخطى الجنود المثقلة بالبرد والحذاءات وعلى الكتف حوامل الذخيرة والبندقية حين تتناوبه مفاهيم التوصيات التي جاء من أجلها إلى الحرب.. «لأننا خير الأقوام»، أو ما يدفع بالجندي النازي وقت ورطته المبهمة مجبوراً بالانخراط في الصليب الهتلري المعقوف.

إن الصعوبة لا تقع في اختيار الإنسان لمصير حياته؛ حيث لا مكان للصعوبة في كونك مزارعاً أو نجاراً، أو بناء بحكم المهنة الوراثية.. غير أن الصعوبة تقع في كونك أتيت من مهنة بائدة بحكم خسارتها ونفاذ كينونتها ضمن زمن التحول الذي يحكم بالتخلّف والفقر والمرض... لأنك فقدت سحنة صنعتك وانتميت دون خيار لهويّة ما، لا تملك ما يمكن أن تتنازل عنه للحصول على دولار.

الصعوبة الصعبة تكمن في ألا تكون محافظاً على حقك الآدمي إلا بشهادة من لا يعرفك وأنت تعلم أنها زوراً!

بقي يومان.. بقي يوم.. بقي نصف يوم، وكانت الدقائق المترسبة من الثواني لا تبدو جزئيات صغيرة بل إنها تمسي كالحجارة الثقيلة في الماء واشدّ قسوة.

مضت ولم يصل المرافق القادم من بلاد «سليك بن سلكة».. بل جاء موفوداً بعروسته مرافق آخر.. ربما ليتولّى نقلك من قاع المستشفى إلى قاع المدينة ولمدّة يومين.. يقضونها جميعاً بحثاً عن المكتبات التي تبيع أقرب الكتب فهماً(التشكيل).

بالطبع كان «زاهر» على مقعده العجليّ، لكنه يرى في الناس غير ما يسمع في السياسة الأمريكية.. إنهم يقعون وراء ها، وراء السعي وراء تخفيض الضرائب، ووراء معرفة الحدود والخرائط وأماكن

القذائف التي لا يعرفونها.

إنهم يبتسمون قبل أن يستأذنوك في الدخول إلى المصعد، والدخول من بوابات الزجاج المتحركة تلقائياً.. إنهم أناس أوتوماتيكيون.

البارحة تم تدشين جناب «زاهراً» برجليه الملصقتين، ليس أول ولا آخر الآدميين؛ فإحداهما بترت تحت الركبة والثانية حدد لها أن تُستأصل فوق مفصل الركبة، وفوق هودج بعجلتين كبيرتين تقودهما أخريان صغيران كحفيدتين متوازيتين.. هودج بلا مظلّة أو حوائط ستارية.. على المقعد قلب يدق بفرح المفرج عنه بعد تقييمات الكسب والخسارة،... قلب يرقص بسعادة العرس المرتقب.. سيخرج إلى الحياة خارج أُطر المراقبة والترصد... الساعة المضطجعة على سفح الإحساس في ذاكرة الغربة المقيتة.. كل الحصارات الشديدة نُفضت في آخر زمن يقاس بالومضة تلملمت فيها حواشي وأشياء الغرفة المعلّقة بالدور الحادي عشر من المبنى الأبيض العريض.. حيث يراه الرائي من الشارع الأسود بجمال هندسي ذي ثقوب متساوية، يسميها سكان الغرف نوافذ، لا تفتح زجاجها الموصد للشمس أو الهواء، وكان «زاهر» يحدث عيونه وجسده بأنه لن يعود إليه أبداً، لكنه وجد نفسه في الصباح داخل الغرفة وعلى ذات السرير وفي واجهة التلفاز المائل بواجهته نحو مرقد المريض.. لقد غادرها فعلاً البارحة.. لكنه عاد بسبب غيبوبة سكريّة في الفندق الذي سكنه مع مرافقه الجديد وزوجته.. فأجري له اللازم، و ربما يغادر بعد ساعة أو بعضها وهذا هو المأمول فيه.

** ** **

الطبيب الهندي «قوفته» أُستدعي من سكنه لحالة طارئة يحملها «زاهر»، فقد أُحدث نزيفاً في خياطة التقاء الجلدين المنفصلين موضع الجرح الكامن بمكان البتر؛ فجاء مسرعاً وصامتاً.. رتق الموضع، ولفه برباطات قابضة لالمة.

قال للمرضة المسؤولة بمكان الطوارئ.. إن عليها أخذ المريض ومتابعته لمدّة ليلة أخرى في التنويم، وكان هذا قرار كالصخرة الكبيرة على صدر «زاهر».. لكنه حملها وانحدر على كره في السرير ذي العجلات.

كان في الردهة مريض على كرسي متحرّك؛ توجهه يداه، وكان برجلين لا يبان لهما أثر، حوّل اتجاهه نحو الردهة المفتوحة.. حيث بقي يدخّن ويتأمل من خلف نظارته المقعّرة أضواء بعيدة متقاطرة على حافتي الشارع الأسود الطويل، وكان المستشفى يحوي بين جدرانه على حركة مضطربة لكل العاملين والعاملات.. غير أن «زاهر» كان يفكر في عودته اللامتوقعة إلى غرفته التي أودعها قبل يوم أو بعض يوم إلى الأبد.. سيعودها دون رضاه الآن.. كان ضوؤها خافتاً، ورائحة النوم المكره فيها لا يزال حاضناً مريضها في لفافته الزرقاء الداكنة، فأوجس «زاهر» خيفة لم يعتدها، و رأى أن العتمة تغتال فيه كل عشبة على الضلوع.. لكنه لم ينم وبقي على قفاه حتى دخل الطبيب.. حينها أدرك أن للصباح أشرعة راحلة وأخرى منتظرة عبر المحيط.. فأحيط علماً بخروجه.. غير أن الفرحة لم تأت بطعمها السابق وإنما كانت حامضة على القلب.

كان المرافق قد أعد استقبالاته وحوافزه لأخذ «زاهر» إلى خارج معتقله الصحي؛ الذي قضى فيه بضعاً وتسعين يوماً.. بعقوبة

جرى فيها بتر الساق الثانية من منطقة فوق مفصل محور الارتكاز الفخذي (الركبة)، وفتح قناة غير اقتصادية ولا تُشكّل ممراً بحرياً ولا جمركياً؛ وإنما لإيصال هوائي داخلي عبر القناة الجغرافية المسماة ب «قناة استاخيوس» بين الأذن الداخلية وممراتها، وذلك بقرار طبي استوجبته ظروف القبر الزجاجي.

القرار الطبي الثاني والذي أفرزته الحالة الكاملة لربوضها تحت المكوث السريري الطويل.. فقد جاء مجاناً ودون تواقيع، وإنما يحمل عقوبته السجين المفرج عنه، ولأسباب مرضية تاريخية لمدة افتراضية لا تتجاوز العام الواحد، من الشد العصبي في الأطراف، والألم الشبحي المستمر حيناً و المتقطع أحياناً بالإحساس العصبي الموهوم بوجود خطوط العصب المتجهة أصلاً إلى أصابع القدم المبتورة بساقها، ومواضع المفاصل القدمية والكعب.

القرار الثالث المرهون بالإفراج؛ يبقى رهين بالحالة حيث.. يرتبط في أصله بالقرار الأول والثاني في نقطة متعلقة بالمعدة ومقدار ونوع وكثافة المأكل والمشرب.

القرار الرابع في قرارات العقوبة مقابل الإطلاق؛ وهذا لا يكون مادياً، ولا رابطة له بقنوات الحس المعرفي، وهو العذاب النفسي المتراكم بالخوف والجزع والولوج من نافذة صغيرة في آخر عمارة بمحطة العمر الآتي حول الموقف الفلسفي الحياتي من العيش ومزاولة الحياة الاجتماعية علاقة ومفهوماً، وتبقى هذه الحالة مرهونة بمدى القدرة التجاوزية لها، ونوعية الفكر القاعدي؛ الذي اعتمدت عليه انطلاقاته ورؤاه ورضاه الأفقي بعدم التعرّض لواقعية الأمور دون استسلام مجاني أو تحت ضغوط جبرية؛ مهما كانت الصعوبة،

وذلك ضمن إطار متجدد يقوم على أن العقل السليم ليس في الجسم السليم.

على ما مضى إقراره، بناء على تفاصيل وموافقات جانبية متعددة؛ تلحق بما مضى شرحه. .تصرف للمريض ساقان بلاستيكيتان، تكون اليمنى إلى مستوى مفصل الركبة على أن تسمح بالحركة من هذا الموقع مستقبلاً، واليسرى تغطي الرجل إلى آخر حدود مفصل الفخذ، على أن يقوم بتدريبات طويلة لا تقل عن العام بعد شفاء مكان البتر وتيبّسه تماماً منعاً للضغط والنزيف، وفي حالة مستديمة يعرفها المعوق المفرج عنه في تنظيم قوانين وضوابط السكر، والأنظمة الدوائية الأبدية المتعلّقة بحالة الكلية المزروعة، ودرجات ضغط الدم، والأعصاب الطرفية والبصرية، مع الوضع في البال. . أنّ إدارة المستشفى لا تمانع في صرف كرسي العجلات المتحرك، و أن يقوم المفرج عنه بتقديم طلب توافق عليه اللجنة الطبية قبل الحصول عليه بثلاثة أيام بلياليهن.

إشارات مشتركة بين الإدارة الطبية النهائية وبين المريض المفرج عنه بكفالة ضميرية:

* على المفرج عنه الاستمتاع بكافة الأحلام، والتصورات الآمال والطموحات الإنسانية والوطنية، كما يحق له ممارسة كافة النشاطات الإبداعية التي لا تتعارض مع قدراته ومواهبه، في حدود أقصاها التعبير الفردي المسموح به داخل مناخ القانون العرفي الرقابي، بحيث يراعي عدم مخاطبة الأشياء بأسمائها مباشرة، ولا شبه مباشرة، وفي إطار معلوم وقياسي مصدره أن لمس الأنثى باشتهاء يفسد طهارة الوضوء، وأن للمباشرة معان تدخل بعضها إلى مزاولة

الفعل الآدمي ما ينشأ عنه المواطئة بين الجنسين.

* لا يجوز له التفكير في المسألة الجنسية بالطريقة التنفيذية؛ وذلك لفترة تقترن بالتحسن من طرفه ومن طرف التقدم الطبي، على ألا يمنع ذلك من السماح بالتصور والتخيل في حدود وله الرغبة والشعور القهري؛ بما في ذلك الأموات ك«مارلين مونرو» مثلاً، وله أن بستعيض عن الممارسة بالأحلام أثناء النوم بحريّة غير مرتقة ؛ ولو بهيئة استرجاعية مصدريتها الفعل الماضي، على ألا يكون ممونا من أية جهة مشبوهة أو مقاطعة حتى ولو كانت غير موافق عليها من أحد؛ طالما تقع داخل منطقة الرضى المتبادل بين الجنسين.

* كما لا يجوز الوقوف ضد فتح أي مشروع غرامي ولو على نفقة الاستقطاع الذهني والهيامي الافلاطوني المعلوم.

في إطار وحدوي قائم على الخيال الشهواني الشبقي، وليس من حقه تجاوز المفهوم «البليك» المعروف في أن الأفراج المسروقة لذيذة، على ألا يكون ذلك مقبولاً في حالة إذا ما كان ذلك مطبقاً على أكل الخبز في السر طيب!!، ومع تجنب الرغبات الداخلة في مفهوم التحليل النفسي، أو اتباع «الفتيشي» أو «المازوكية» في تعذيب الذات على حساب الخيال لكي لا يتحطم بفعل شدة المعاناة.

** ** **

«زاهر» لا ينظر إلى الأشياء بمعزل عن ذاكرته.. لماذا يحب وطنه حباً جنونياً الآن ؟، لماذا يفكر في الوطن الإنسان وليس بمعزل عن الإنسان الزمان والمكان.. إنه إنسان ولا يقبل بالمراهنات، ولماذا يفكر في أنه إنسان بلا آخرين، وهل الآخرون هم خارج إنسانيته.. يا

للعجب !

هل فعلاً أن «كل يغني على ليلاه» ! مقولة قديمة يركبها الآخرون على نفقة الإنسان، ولنعتبر ذلك.. فهل كان لك يا هذا الوحيد أن تفكر في اتجاه النهر الذي يصب في مطامعك؟! ليس هناك أمر يفرض على وعيك وذاكرتك.. فما هو ذنبك إن كنت ترجح إلى الحقيقة التي تراها بقناعتك!، قل إنك لست محزباً ولا عدواً تجاه أحد ما، ولا جهة ما، ولا رأي ما.. لكن من يسترجع الغيبوبة فهو يعيش فيها:

عاش غيبوبته ؛ فتذكر:«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»:

قال «زاهر»: أنا الآن في حالة استرجاعية للغيبوبة.. ما ذنب عمرو فيما قاله زيد !.

لله على الناس أن يقولوا «وهذا أضعف الإيمان»: «بألسنتهم ثم قلوبهم».. ليتحدّث «زاهر» بذاكرة الغيبوبة وليس له في ذلك جرم.

هل أكل الرجل المرأة في أمريكا لأنه يراها ويخلو بها في شتى أمور الحياة ؟!

«زاهر» لم ير ذلك أبداً.. فأين الخطأ في هذا الزمان، هل هو في الازدواجية.. أم في الكذب المصرح منهم، أم هو بين بين، وماذا يعني موضوعياً «بين بين»، وما ذنب الناس المتعلقين خلف الأستار؟!

لندع «زاهر» وأحواله، فقد قال في ذاكرة هلوسته.

يا رب..

هل جعلت العقل والسؤال في أناس دون آخرين ؟!

«إن الحق لا يرضى بالظلم، وهو الحق»، لماذا لا يكون ل «زاهر» أن يقول بعض ما في ذاكرته الغيبوبية ؟

اليو م هو زمن السؤال ؟!

لماذا لا تفكر ببساطة أن الطائر لا يطير بجناح واحد، ونحن عرب، وندّعي أحقيّة العقيدة.. أمور يُناقشها عقل وذاكرة «زاهر» بمرجعية الغيبوبة، وسأل:

هل كرامة المرأة؛ وإنسانيتها.. تكمن في لفافة ؟، وهل يجوز تجزئة الآدمي الذي كُرّم ؟!

وهل يجوز للإنسان في موطنه بكامل موروثه..أن يسأل:

أين موقعي.. إنسانيتي.. آه؛ يا أمي المسكينة الإنسانة.. آه يا أختي.. آه.. يا....إنتي.. آه.. سيداتي المغلفات !!!

آه يا تلك التي تصفع على خديها..؛ لأنها لا ترغب في الزواج من رجل أراد لها أبوها ذلك !

آه يا زاهر ؛ وأنت رجل - كما يعتبرون سلفك - أنت لست ب «عنترة»، ولست«سليك بن سلكة»،.. إنك مقاد بناصيتك.

حك «زاهر» ذاكرته، وتساءل:

كم من الأغلاط تُمارس باسم الإنسان ؟!

ما علاقة كل هذا وغيره بمن يفرض على الناس حكمه وقوته؛ وأنت وأنت لست إنساناً..

** ** **

«زاهر» يتساءل ببراءة:

ما مصير الأطفال في الخارطة العربية ؟

الجواب السياسي المصرح يقول:

«نحن ننهي ونأمر باسم الله»، وليس من حق أحد أن يقول: «آه»، ويسكنون الآم الإنسان في «القدس» فيلعنون أمي وجدي ونسب قبيلتي.

يا «قدس»

يا «لبنان»

يا «عالم»

يا «دولار»

يا «أسعار النفط».

.. كُلْ ... إفراغ أمعائك واصمت..

المواطن العربي و«المسلم».. إنه لا يحب أن يسأل ذاكرته المهلوسة التي كانت برغم هدوئه تحاسبه وتُسائله، وكان على الإنسان أن يسال:

هل مجازر «الجزائر» البلاد التي قدّمت مليون شهيد.. هل هي اليوم؛ وفي جواب.. أنهم ذريعة المتطرّفين الإسلاميين، وما دور التي تدّعي أنها «دستوريّة» أمام «المقابر الجماعية» ؟!

الجواب: لا جواب.

سؤال من ذاكرة «زاهر» الغيبوبية:

* والفلسطينيون.. هل يذهبون إلى محتكم ك «الشيخ شعراوي».

- هذا ليس شأنك.

* والعراقيون يا سيّدي ؟.

- «ليس لك شأن بهم يا «زاهر» ؟!.

* و.. «السودان» سيدي العقل ؟.

- ليس لك شأن بهم ؟.

* والأطفال الفقراء ب «مصر» و «لبنان» و «هنا» ؟.

- هذا شأن لا يعنيك. و «هيئة الأمم ؛ متكلفة» كُلْ إفراغ أمعائك وأصمت !.

* سيدي أطفالنا وشبابنا.. وأين المستقبل ؟!

* سيدي ؛وأطفالي، وأنا وزوجتي ؛ وحماري وثوري وبقرتي؟

- عجيب، وهل لا يزال لديك حمار وثور.. أنت مُتخّلف؛ اذهب إلى مزرعتك ودعها تؤدبّك.. هل تعرف نتائج المنتخب الرياضي.

* لا والله لا أعرف !.

- اذهب، فنحن نعلم؛ وأنت لا تعلم !.

* نعم.. نعم سيدي؛ ولي أبناء يُشجّعون المنتخب !.

- ألم أقل.. إنك تعيش في غير زمانك.. اصمت.

سيدي.. ؛ وسوق البورصة في «لندن» ؟.

- اصمت.. نحن وصايا.

* سيدي.. أريد ماء.. كهرباء.. تليفون.. لعنة.. الخبز.. الدواء.. كرسي دراسة التراكمات الاجتماعية.. بطاقات الركوب على الطائرة غالية جداً، أريد تفسيراً لمعنى الاندماجات الاقتصادية أو الجحشية؛ أو الصرصوصية ؟!

- هذه أشياء لا تفهمها...

* سيدي، كلها سباق التسلّح؛ والنجوم والأقمار؟!.

- كلها ؛ تصب في نهر لا تعرف معناه.. كُلْ هواء واصمت!.

- يبدو أنك مُتأثر ب «الفضائيات» وكلام المغرضين.. لذلك تقول: كُلْ ما تفرّغه أمعاؤك و اصمت !.

* يعني..أنا وأبنائي، وليس لنا إلا أن....ونصمت!.

- بكل تأكيد.. ومن سمح لك بالتخاطب معنا !!

يذكر «زاهر» أنه منذ وقت بعيد لم يتمرحض، ويذكر أنه بالغ طويلاً في تحسس وجهه الذي يعرفه حليقاً بشوارب غضة لا تعكس ليونة قلب حاملها، يذكر أن باب الغرفة التي يقع بداخلها سريره الوحيد،كان على جانبه الأيسر الذي لا يضطجع إليه ولا إلى واجهته البعيدة.. فلماذا تبدو الأشياء الآن على غير ما اعتاد؟.

لماذا كلما ظن أنه أفاق، أو أنه في حالة إدراكية أو شبيهها؛ لا يلبث أن، يكتشف بعد وقت أو بعضه إنما كان في هلوسة لا يدري أين الحقيقة فيها؛ ولا إن كانت تتجدد في سياقات مُتداخلة لا يلحظ تعاقبها أو تلاحقها أو تباعدها.

أما الزمن؛ قلنا أنه قد تحوّل إلى فضاء واسع عنيد وقاسي كعمق محيط لا حدود له، ولا أمل في معرفة قياساته وموانئ عقاربه.. إن ذلك مخيف وموحش، متسع الضلالة، فالإنسان سعيد في توازناته إذا كان يشعر بحركة الزمن على أي صورة كان، فهو لا يستطيع أن يحيا بتلاؤم مع العمر والتفاعل دون حس بالزمن ولو كان افتراضاً.. إن الزمن ليس بياض نهار وسواد ليل فقط.. إنه مقدار كثافة الحس به. الحس الذي يجعله يفكّر ويخطط ويأمل ويفرح ويحزن ويُقرر ويتحرك، ويحك جلده ويتثاءب ويتكلم بصوت أو بدونه.

وأما المكان.. فلم يجد ل «زاهر» معرفة تعيينه له.. لم يعد يعلم إن كان في غرفة لا يدري عن موقع بابها ونافذتها الوحيدة.. في ولاية؛ في مدينة في بلد بعيد يراه في الخوارط الجغرافية والسياسية.. أهو في أمريكا أو في الرياض عاصمة بلده، أو في الظهران، أو في جدة، أو في الجنوب بقريته الجبلية !.

لقد كان فيها جميعاً وفي غيرها من الأماكن، لكنه دون ترف ومزايدة؛ ليس في مكان لم يمرّ به في ذاكرة عمره، ولو حاول أو كان له أن يتجرأ فلن يتعدّى حدود المعرفة التي تراكمت ذراتها في «اللاوعي»، والذي انبنى في بنائية ذراته الدقيقة من الوعي، ولو كان غير مدرك فالهلوسة العلاجية الآنيّة لم تعد في إطار الحركة القائمة على إمكانيّة أو رغبة التحكّم.

إن الواقع الجنوبي لحالة الجنون..هو أن المجنون لا يدرك أبداً أنه مجنون، ولا أعتقد أنه يعلم مقدار الاختلاف الناشز الذي يعيشه في ذاكرته وهو مختلف عن الصحيحين !؛ وعلى أي حال كانت الحال..

فإن حالة «زاهر» المغموسة في عمق الهلوسة الدوائية المفروضة.. لم تكن إلا حالة حلم في فيلم سينمائي طويل بعيد عن الزمان والمكان والمؤثرات الواعية، فقد رأى أنه في مدينة «إسلاميّة فاضلة».. ليس فيها عنف أو تصفيات فكريّة أو جسديّة.. لم ير فيها بنادق ولا فؤوس ولا سيوف ولا عصي ولا متفجّرات، ولا ثياب قصيرة ولا لحى ولا حملات تحطيميّة ضد التلفاز والإذاعات والسينما والفنانين والجرائد والمجلاّت وقاعات الشعر والفن، لم ير أخواناً باسم الإسلام (.....) البنات اللائي لم يبلغن الحلم،.........، ولا تفجير فرق السوّاح في مزارات التاريخ في «مصر»، ولا تكفير الآدميين وتلغيم الحافلات، والمدنيين الآمنين ودعوى التهجير إلى البراري.

لم ير في «مدينة الإسلام الفاضلة» عمارات تسقط عياناً نهاراً «الرياض» و «الخبر» تحت عبوات التفجير القويّة باسم الفضيلة، لم ير الناس يُحاشون بالعصا إلى الصلاة ومضخمات الصوت إلى المساجد !

لم ير «زاهر» لفافات سوداء بعدد يزيد عن نصف الساكنين؛ بدواخلها آدميون يُقال عنهم نساء وعورات يدخلن في عولمة القرن الألفين والألفية الثالثة !

لم ير أنه في ساحة كبيرة محاطة بالأسئلة حول «أين، ومتى، ولماذا، وكيف، وهل»، ولا كيف ومن أجل ماذا ترى في الحلم أنك جثّة تحملك أمك في سيارتها إلى مقبرة أهل الدار بالقرية البعيدة، ولا قوماً بلغت أحلامهم أن يتوجّهوا إلى الرئيس الأمريكي بدعوة خالصة لدخوله في الإسلام؛ كي يصبح والياً اسمياً كما كان قد مضى في العهد العثماني المريض !

لكنه رأى هذا، ورأى أن «الرصاصة التي ندفع فيها ثمن اللقمة والكساء.. تقتلنا لاتقتل الأعداء»، فاستسلم لكل الهلوسات التي أدخلته بدون حول ولا قوّة أو رأي أو مشورة؛ من أوسع باب خانق باسم السلام أو الاستسلام إلى الأرض المغتصبة، وعلى أثر وصف طبي قديم يرى أن «الجزر يحمي البصر» !

رأى مالم ير..

فاشيّة تقتل الرضيع في مهده والأم في نفاسها، والثكلى في هزّتها، والنبتة في يناعة خضرتها باسم الصحوة الجديدة، ورأى قوماً يسترجعون أمجاد ماضيهم عزاء وتعزية وأموالاً وتفكيراً وسياسة المغلوب ورأى شوارع و حارات مكظومة بصوت واحد؛ كلّها ترفع : لا !. لكل شيء «لا» !

الخبز الهوان.. المقعد الدراسي للصغار، الحديقة الملغّمة، الأغنية المسطحة، الإسفلت الساخن، أعقاب السجائر المستهلكة، أوراق وعلب الأطعمة الجاهزة، إطارات السيارات المفحّمة، شباب يدوّرون عن شبابهم وراء المحيطات باسم الإسلام والوطن.

رأى «زاهر» في هلوسته العلاجية التي ضيّع فيها الزمان والمكان.. أن الكائن الحيواني حين يتألم يصرخ: «آه»، وأن الكلب المترع بالنعم يحتاج أن ينبح في السكون والغيبوبة والنسيان والطمس وعدم الإحساس بالزمن الراكض الذي لا يستطيع أن يحيا بدونه... فصرخ: آه ؛«هوْ» !

لم يكن يدري أنه في غرفة صحيّة بمستشفى، وحين جاءه الممرض المناوب.. أعطاه حقنة جديدة مخدّرة فغاب في هلوسة جديدة، وكان آخر ما أغمض عليه عينيه.. أنه: كومة وعي في إنسان يقع

في جمجمة وجسم بلا أطراف؛ وأنه يستند إلى فخذين يتحرّكان قليلاً، ويتعلّقان بأطراف السرير فسكت؛ أو لا يدري أنه سكت.. لكنه رأى نفسه في ظلام عميق، وكانت أطراف السرير بحواجز بيضاء معدنية؛ فتعلّق بها كأنما هو في هاوية عظيمة، وأخذ يصرخ بكل صوته المخنوق: «سيستر.. سيستر» !

لم يكن أحد قد منحه أدنى المسامع ؛ وكان يصرخ ، وعندما جفّت بلاعمه وشحُب صوته.. جاءه ممرض النوبة الليلية غاضباً وهو يردد بإنجليزية أمريكيّة مضغوطة:

«..Don't use your voice .... be quite..be quite»

ثم حمله كحشرة بلا قدمين ووضعه في السرير.

صدر للكاتب والروائي الراحل:

المجموعات القصصية:

موت على الماء

أسفار السروي

أحوال الديار

الزهور تبحث عن آنية

بوح السنابل

جاردينيا تتثاءب في النافذة

*(وقد أعيدت طباعتها في المجلد الأول لأعماله الكاملة)

كتاب «مكاشفات السيف والوردة» - سيرة أدبية

الأعمال الروائية

الغيوم ومنابت الشجر

ريح الكادي

الحصون

صالحة

*(وقد أعيد إصدارها في المجلد الثاني لأعماله الكاملة متضمنا كتاب مكاشفات السيف والوردة)

الوسمية

في عشق حتى

المغزول (التي تصدر هنا لأول مرة)

وسوف يعاد إصدار الروايات الثلاث الأخيرة في المجلد الثالث من أعماله الكاملة

أرشّح «عبد العزيز المشري» للعالمية

إننا إذا أردنا أن نصل إلى العالمية فلا بد أن نقدم للغرب شكلاً جديداً لم يعرفه من قبل، وهذا لا يتحقق بالطبع بتقليد « ألف ليلة وليلة»... ولحسن الحظ فإن ثمة أعمالاً عربية «ما بعد حداثية» أصيلة ليس فيها تقليد «لألف ليلة وليلة»، وليس فيها تقليد للآتي من الغرب وخاصة تيار «ما بعد الحداثة»، وإنما تطوير للاثنين معاً، وهو في رأيي تطوير عفوي لا مقصود، نتج عن الصدق في وصف البيئة المحلية والمحافظة على تقاليدها في النص الشعبي الشفهي، ومن هذه الأعمال، بعض أعمال الطيب صالح... وأعمال يحيى الطاهر عبد الله، و«الوسمية»، ولهذا فإنني في نهاية المقال أرشح «المشري» للعالمية.

عابد خزندار

(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم

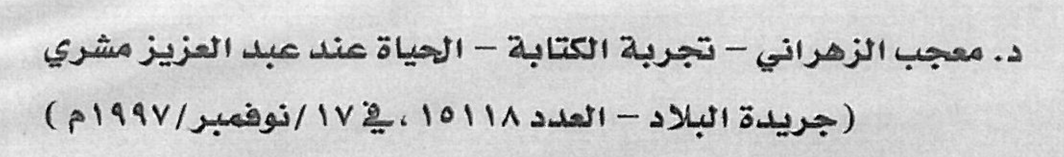
١٤ إبريل ١٩٨٨م)

«الكتابة المشرية»

بدأ المشري كغيره من الكتاب الذي يعتقدون أن الثقافة والفن والجمال في ما يقرأ الإنسان ويحفظ عن الكتب لا في ما يعيشه ويختبره بكل حدوسه وجوارحه.

لكن هذا الكاتب البسيط والأصيل سريعاً ما تحول وحوّل كتابته إلى نص الحياة المفتوح على حكايات ومعان لا تحد وتتجدد باستمرار، مثلها مثل لحظات الحياة ذاتها.. وجّهته حكمة الفلاح وحدس الفنان المبدع إلى تجربة كتابة، سريعاً ما تحولت إلى تجربة، تعلن حضوره المتميز دونما صخب أو افتعال كما تعلن اختلافها بإصرار عنيد وجميل. هكذا أصبحت الكتابة المشرية نموذجاً لأية تجربة إبداعية تستمد قيمها الجمالية والفكرية من أعمال تجربة وجودية .. تاريخية تضرب بجذورها عمقاً في ذاكرة الإنسان وذاكرة المكان وفي ذاكرة اللغة.





د. معجب الزهراني - تجربة الكتابة - الحياة عند عبد العزيز مشري

(جريدة البلاد - العدد ١٥١١٨، في ١٧/نوفمبر/١٩٩٧م)